عناية خالد أسعد



قلعة بلون السماء

رواية



رواية

قلعة...
بلون السماء

عناية خالد أبسعد

2012



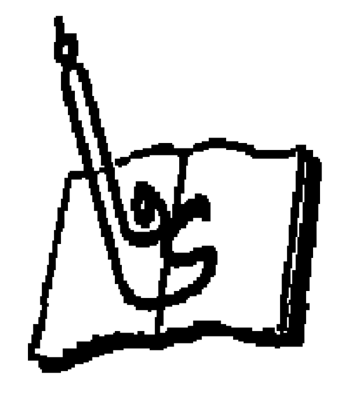
دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

٨١٣,٩
أسعد، عناية خالد
قلعة بلون السماء / عناية خالد أسعد ـ عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٢

[ ] ص .
ر . إ . : ٢٠١٢/٣/١١٧٢
الواصفات : القصص العربية//العصر الحديث/

* يتحمّل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنّفه ، ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية،او أي جهة حكومية أخرى .

الطبعة الأولى : ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢

ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن

E-mail: dar_yafa @yahoo.com

الإهداء

دعيني أطوي السماء بكلماتي ، علي أصل إلى عنان قلبك ، أعانق سماء أحلامه وأبجدياته ، أرسمها بين خلجاتي...

دعيني أطوي السماء بكلماتي ، أحلق فيها كطير صغير ، كعصفور لا يعرف الأسر ، دعيني أروي عطشي من عيونك الندية ، وأرتشف الحب منها ، وأحلق في سمائه الوردية!

دعيني أبني جسوري التي لا تعرف الانهزام ، لتلقي في عينيك أروع الكلام ، شعرا ...نثرا.. لست أدري؟! بل قصائد حب أزلي!

دعيني أطوي السماء بكلماتي ، وأسرق الوقت لأعيش بين يديك للحظة! ككلمة!

كم أحسد كلماتي الأن! لأنها بين يديك؟! تنظرين إليها ، تقرأين ذاتي من خلالها ، وأي ذات ذاك؟ بل أي ذات كان ذاك؟!

دعيني اهمس في أذنيك بكلمة حب بالله ، تطرب أسماع فؤادي ، وتقبل عمري وحياتي ، كي أرسل روحي تلقاك ، تقتحم حدود النسيان ، لا أعرف الجدران! لا تعرف روحي الإنسان!

دعيني أطوي السماء .. وأحمل رحلي وترحالي ... دعيني أسافر في الدنيا ، وحدي لا أعرف أوطاني...

أوطاني عيون من الماس ، وقلوب لاتعرف الخناس ، وهدى يتعانق بالأنفاس ، أرسمها في عالم من الإحساس! فهل سأجد أوطاني؟!

دعيني أبحث لا أدري! عن كلمة ، عن معنى لقلبي ، هل تكفي أيام العمر ، كي أرسم عالم في ورقي؟!

دعيني أطلب من ربي ، أن يجمعنا طول العمر ، فأنا ( ) لو ترضي!؟

إهداء خاص: للدكتورة هدى منصور.

أمي وأبي ... أخوتي وأخواتي...

عناية

قلعة... بلون السماء

(...غرفة باردة، وجسد نحيل يرتعش، وحبات لؤلؤ تتساقط من عينيها المغمضتين، منذ متى تبكي العيون في هذا الوضع، أم تراها الملاك النائم،أو لعل التسمية الأنسب لها الأن (الحزن النائم) وأي حزن تراه يعتصر عيونها هكذا حتى في حال النوم، وأي نوم! وجد النوم للراحة لكنه في بعض الأحيان يوجد للهروب..

وفراش وجد لننعم بالدفء فيه ليس ليتحول إلى قالب ثلج، ولعل القلوب هي الشعلة التي تتقد لتشعرنا بالدفء، لكن عندما تتجمد القلوب يتجمد كل شئ، ويبعث الموت في أركان تعج بالبهجة المورقة كحبات مطرأسود لاتكاد تلامس الأرض حتى تجعلها يباب،فأبحث وسط هذا البحر من الظلام عن شعاع نور، لكني لا أجد إلا قلبك والقمر...

هل تعرفين بحر الظلمات التي تغرق فيه؟ أظنك حتما لاتعرفينه إنه بحر يسرق من السماء كحل عينيها الزرقاوين في لجة الليل، ويخفيه في جوفه،حين يتلامس معها عند نهاية الأفق، فيصبغها بالسواء الذي يطفو على درجات أمواجه العاليه، فتبك السماء بكاء ممزوجا بذلك السواد، وتترل قطرات المطر الأسود راقصة، بضحكة شريرة لتعود لذلك البحر

الذي جاءت منه حبالها، فتتسم الدنيا في تلك اللوحة بالسوداء قاتمة، لا تبصر النور ألوانها..

هي هناك في ذلك العالم! عالم اللاوعي، على إحدى الأسرة في مستشفى مترامي الأطراف، غارقة في أتون رفض الواقع، راقصة بين ركام الماضي، تحاول أن تجمع شظايا الأمل، على الرغم من أن اسمها (أمل)!؟

وأيٌّ ارتباط لهذا الاسم فيها! بل أي ارتباط لها فيه! وكيف لا. فالأمل والألم وجهان لعملة واحدة، معادلة رغم مرارتها إلا إنها الأنسب لتحقيق معنى المساواة العادلة في هذا الزمن الذي قلب رأسا على عقب. أو ربما نحن من قلبنا وبقي الزمن كما هو، لا أدري فهل هناك من يعرف... فالمعرفة في هذا الزمن شيء يتعب العقل، وكيف لا وهي التي تدفع هذا العقل ليدور ويتحرك كالدولاب يعتصر كل شيء، فيتهاوى من فرط السرعة ليتدحرج بقرب من عرقل مسيره، وإن عاد للعمل من جديد أتعب صاحبه في البحث عن كل حق جديد، فطلب الحق من العيوب في هذه الأيام.

فتح الباب ودخلت، أخذت تمشي بقرب السرير، سرير الأمل الذي تكوم بلحظة في شبه جسد يحترق... يشتعل ولكن ما الثمن الذي تدفعه؟ ولماذا هذا الاشتعال؟ قلبها الصافي لا يحتاج لتطهير، أم تراها

كالشمعة التي تحترق لتضيئ العتمة من حولها ولكن بخجل بريء! جراء ظلم متوحش لايعرف الرحمة...

نظرت إليها بدفء، تعانقت الأرواح،تطارد أبجديات حياتها من دون أن تصل للحقيقة، حقيقة ما حدث لها، جلست بقرب السرير، أخذت ترمقها بعينين بالحب ذائبتين.

هذه عيناك سيدتي كما اعتادت أن تغزل الحب دوماً وتلقي به لمن يحتاجه، أو ربما تلقيه لمن عبر حياتك فجأة وأردت أن تتركي في داخل لحاء قلبه أثر،يداويه ويعيه في آن، فأنت الدواء والمرض، ومن يدري ماذا تكونين بعد! أنت الجمال واللهفة، أنت القرب والبعد، أنت الضحكة والدمعة، أنت أي شئ.. لأنك كل شئ!

أخذت أصابعها تقترب من ذاك الوجه الملائكي الصافي، ترتعش قبل أن تلمسها، لكأنها تلمس شئ مقدس، تتسأل عن الذي حدث لها، وحولها من قمة الحياة إلى عتبات الموت، وتأخذها أفكارها لعالم الذكرى، لتستيقظ على صوت أنين يتقطع، خرج من أحشاء (أمل) ليقسم قلبها، ويوقظها من حلم مر ها، كأنما يخص غيرها..بل كأنما تخص غيره..

أخذت تحتسي هواء الصمت بلذه لا تعرفها، ثم كسرت فنجانه وهمست بكل رقة:أمل..هذه انا (هدى) هل تسمعين! ألا تريدين أن نتحدث!؟

ثم أعادت ذاك الهدير مرات ومرات، تعرف أنها غابت عن الوعي، لكنها موقنة أنها تسمعها، أخذت الأفكار تتسلل، تخلق لها طرق ومضائق لتصل لكن ليس لمكان، بل لتجد نفسها في خلاب سرابيل صحراء مقفرة من الأسئلة.، وتضيء لها الطريق من جديد بكل سؤال جديد يعيدها للبداية.

أترى هل يجدي نفعا حديثنا، هل فات الأوان،أم مايزال هناك أمل، وما هي نسبة هذا الأمل في النفوس المقفرة حولها، هي الأن جسد بلا حركة!بعد أن كانت تملأ الدنيا حركة، إبتسامة ضائعة، بعد أن كانت تترنم بإبتسامتها قصائد الشعر، فأين مناطق الروح تخترقها بابتسامتها، أم تراها تحولت لحصن سهل الإختراق بعد أن كانت قلعة منيعة، انهارت أسوارها بعد أن حيكت حولها المؤامرات، ولم يعد هناك متسع للوقت، فبراثن الأعداء تتربص بجسدها الغض.

كانت تتسائل:كيف يستحلب الأمل الآن! لذلك لم تجد عذراً، أو مهرباً إلا بالتسبيح وذكر الله، وليكن حكر الإستعانة به في كل حال.

أما (أمل)..فعندما سمعت صوت (هدى) نبضت بالحياة، أخذت تنتعش، وتفتش في محفظة قلبها عن تلك العملة النادرة...الأمل، فكان وقع نبضها تصوغه الأمنيات وكأنه يهرب من هذا الجسد، وهذه الجدران ليخرج للفضاء الرحب، ليعانق السماء بلا قيود وبكل حرية يتنفس الهواء العليل، أم تراهم لوثوه بأنفاسهم المتعفنة بصديد ممزوج بالحقد..

أتريدين أن نتحدث الكني لا أستطيع أن أتحدث، وإن تحدثت ماذا أقول ومن أين أبدأ؟! ماهي بداية الكلمات؟ هل تكون حروف مبعثرة لا معنى لها يصوغها طفل حالما تعلم النطق، أم تكون من نهاية البداية... أه كم تناسبني نهاية النهاية لأني الأن في طور النهاية! بل لعلي انتهيت قبل أن أبدأ! أو تراها بداية جديدة تحمل في داخلها عنوان جديد قد تضعينه أنت فيما بعد وليكن ما يكون.

فلم يعد يهمني العنوان بقدر ما يهمني المضمون، وأي مضمون هو محتواي! والعنوان ليس إلا بضع كلمات توضع لتختصر المضمون، لكن هذه المرة العنوان بضع كلمات تختصر حياتي، لذلك أرجو أن تكوني حريصة في اختيار هذه الكلمات فحياتي بين يديك سيدتي مجردة من كل شئ إلا العنوان الذي ستختارينه وانا، وأتحول إلى بضع كلمات موجزة.. وقد لاتساوي شئ عن البعض.. من يدري..

انا القيثارة التي لم تعد تعرف لحنا لها إلا الحزن والألم، سئم منها العازفون لأنهم لا يعرفون روعة النهوند في نشوة الألم، لكنهم يعرفون جيداً متعة الرقص والجسد، وليكن ذلك سادعو لهم (زوربا) ليشاطرني نشوة حزني هذه وليرقص معي حتى الصباح على أنغام استلابي، أجل سنرقص على أشلاء الأمل...

سنعزف لنرقص ونعلم الأخرين كيف يهبط الحلم على اللاوعي أول مرة بالأفق! بل كيف تنصهر الكلمات لتصيرلغة ذات سحر خاص وخالص لتقطن فينا كالأوطان!

أصدقك القول: لقد وجدت فيك أوطاني، أجل، انا التي لم أعرف يوما حنين الأوطان عرفت الوطن فيك كبرت بعينيك اللتان ما تزالان كعهدي بهما تنسجان الحنان دوماً، وانا الغارقة في بحر الوحشة، ألقيت إلي شبكتك لتنقذيني، لأجد نفسي قد غرقت في بحر حنانك الذي لا شفاء منه، سيدتي.. أنت أوطاني! أنت الحنين الذي تقادم عهدي به عرفته بعد أن شابت طفولتي، فتمنيت أن أعود طفلة فقط حتى أعبث بين يديك، وأستقي من حنانك، لكني ولدت من عمر المشيب، ولدت محنية الظهر، مقسومة الأضلاع والجوانب والأحلام، ولدت ليكون مهدي، شيء يشبه القبر وربما القبر.

لا أحد يدري كيف تتكور الروح في ذاتها مسافرة في كل أطلاس الوجود، باحثة عن لغة حوار بين أرواح متحابه! بل كيف تصرع هذه الروح كل الجدران وتشق الصخور لترسم نجمات وقمر في سماء الظلمة، رغم أن ريشتي التي أرسم بها مكسورة، لكني قادرة على اجتلاب الألوان من عينيك وقلبك النابض بالحياة، قادرة على تلوين كل شئ، حتى السواد نفسه ألونه بالسواد ليكون سواداً، بلون رايات ترفع قد تشعل في قلب رافعيها نار الثأر التي لا تنطفئ إلا بالدم، وليكن الثمن ما يكون..

ومع كل ذلك سأخبرك! سأخبرك عن قصة حياتي، أو بالأحرى قصة نهاية البداية، التي داسها المجرمون على عتبات هذا الزمن! سأسرد لك كل شئ، وأترك روحي تحاكي روحك، تحكي لك من البداية، وأي بداية كانت!

بداية حلم داخلي صدحت به أحشاء نفسي، ونضحت به مخيلتي خلف غمامة لهاجس مكبوت حتى النخاع، أدري أني أمارس الحلم والخيال، لكن ما الذي يغري خيالي؟! أو ما الذي يغري الخيال بي! سؤال يسألني؟

لكني لا أعرف الإجابة؟ فالحلم في هذا الزمان أصبح هذيان، وحتى الخيال الذي قد نحوله إلى حقيقة يوما ما تحول إلى جرم غير

شرعي يعاقب عليه العرف والمجتمع الذي نحيا فيه، فليس هناك من قانون يعاقب، لأن القانون أصبح حبر على ورق، لا قيمة له في زمن تعلوفيه السلطة والمادة على كل شئ حتى الإنسان نفسه، يصبح عجينة طيعة لينة في وجود السلطة التي ترعى في مراعي المال الجائرة، فهل بعد هذا كله يكون هناك ا أدنى سلطة للقانون؟! لا أدري لعلك تعرفين الجواب؟

كنا عائلة صغيرة، أبي...أمي..انا و(حياة)، أختي التوأم، ولدنا معا، كانت تشاطرني رحم أمي، متشابهات في كل شئ، سوى أني كنت أراها أجمل مني بعينيها السوداوين والوجه المشرق، أما انا فعيناي غارقتان في بحر من العسل، لأرتع فيه ولأنسى أحزاني..

نشتعل فرحا عندما يدخل والدي الباب مناديا(أمل حياتي) ويقصد بذلك أني انا أمله وحياة حياته، يلاعبنا، يلاطفنا، تغرورق عيوننا بالدموع فرحا...وتعبا؟

ثمة ما يرقد الأن في الذكرى من محاولات يائسة للتذكر، وثمة ما يحضر في بقية هواي عن همسات الماضي، ذاك الماضي المدجج بالسعادة التي لا تنتهي، أجل. سأنتصر على صهوت جوادي المكبل بالسروج وأكمل!

أذكر جيداً حين همنا بدخول المدرسة لأول مرة، أخذ أبي يعلمنا ويتابعنا، ويراجع دروسنا وكأنه طفل يعيد دراسته من جديد، بعد أن اصبح أبا، وقبل ذلك طبيباً؟

يحدثنا عن المستقبل، وكيف أن الوطن المحتل بحاجة لنا، لنحارب الغاصبين بالعلم، ويتسائل: ماذا ستصبحين يا(حياة)؟

فتجيب: طبيبة كوالدي!

وأصيح انا: سأصبح كاتبة! مؤلفة وشاعرة!

فيضحك ويقول: لم أسألك بعد يا شقية!!

فتنادينا امي: مجد... هيا يا بنات لتناول الغداء...

كانت حياة بسيطة، أقصد تلك التي كنا نعيشها، على الرغم من بساطة أختي أيضا، فأين يكمن التعقيد إذا، نعيش بصوفية زائدة، وبحلم طفل، وبدهشة عاشق طرب لها، وبقلب محارب، وبروح جورية حمراء جميلة، تتفتح في الصيف ليقطفها غاصب دون أن تدميه أشواكها المشرعة على الجانبين، ألا تعرفين: فالشوك لا يدمي من لا يملك المشاعر الأدمية! لذلك كنت أصر دوما على أن أهديك الزهور، بل كنت أهدى الزهور إليك لتملئيها إحساساً، حتى الزهور كانت خجله منك، وكانت تخفي أشواكها بعيدا عنك، حتى لا تجرحك، فالأزهار تعرف حقيقة من

أهديت إليها، وأهديت بها! لذلك كانت دوما تحمر خجلا منك على الرغم من أني كنت أجلبها لك بيضاء ناصعة كقلبك!

قامت انتفاضة الأقصى، وكان لابد وأن يسافر والدي إلى الأراضي المحتلة، أو كما يسميها (بلادي المغتصبة) ليقوم بواجبه كطبيب يعالج الجرحي، على رأس بعثة طبية ستسافر إلى هناك،فكان الرحيل والترحال ضرورة، أو ربما هي أمنية يتمناها والدي منذ زمن، وها هي تتحقق الأن...

لم أكن أعرف أن رحيلك هذا يعني رحيل كل شيء، رحيل كياني وروحي وقلبي، لم أكن أعرف أن رحيلك هذا سيكون بمثابت أول انحلال لسبحة تماسكنا، وأن خروجك يعني انقطاع ذلك الحبل الذي يجمعنا، ولم تبق لي إلا سبحة الدموع والألم التي لا تنتهي أبدا ولا تنقطع، أي لعبة تلعبها الدنيا بي، بين سبحة تبعثرت حباتها في كل فج، وبين سبحة حالما تنتهي دورتها لتلتف من جديد بين يديها على عنقي انا، ألم تتعب يداها يا ترى؟ بل تعبت انا وانشق نفسي...

حاولت أمي إقناعه بالعدول والإعتذار، لكن الواجب ليس فعلا مجانيا، بل إن له ثمناً عالياً قد يكلف أحدنا عمره وحياته..هذا ما قاله وهو يضمنا...

نظر إلي وقال: يا شقية!حافظي على نفسك وعلى اختك، ادرسا جيدا، لن اتنازل! انا والد الطبيبة (حياة) والشاعرة (أمل)!

ثم قبلنا وانصرف، لكنه سرعان ما عاد للحظة وقال: (حياة) لاتجهدي نفسك بالركض واللعب كثيرا! لاتتعبي قلبك!

فقد كانت (حياة) تعاني من ضعف في القلب يتعب نبضاتها، ذاك من تشوه في القلب لازمها منذ الولادة؟!

هكذاهي (حياة) كأحلامنا، خلقت مشوهة لأنها ولدت في زمن لا يجب أن تكون فيه رقيقة شفافة لا تمزجها البساطة، بل يجب أن تكون قاسية لا تعرف الرحمة حتى تستطيع أن تعيش في غابة، يحضرني ذاك المثل القائل: (إن لم تكن ذئباً...أكلتك الذئاب) عرفت ذلك مسبقا صدقيني، لم أكن أدري! لم يخبرني أحد! عرفت ذلك بنفسي. لكن هل فات الأوان؟!

ودعنا أبي متوكلا على الله، أودعناه إياه كما أودعنا، لذلك كنت موقنة أن ملك الملوك سيحفظ الأمانة وسترد، ولكن متى؟ من يدري...

كانت هذه أخر مرة أرى فيها وجه أبي، تسوقني الذكريات دوماً لتذكر ملامح وجهه، أتساءل في كثير من حالات الإستغراق عن مدى جدوى ذلك! أخيراً! يجب أن أعترف لك:لطالما امتلأت أدراج نفسي بمخطوطات اختزلت الحلم أو الخيال باحثة عن وجه أبي، وراسمة له

أروع صورة، دون أن يفسدها تراكم غبار الأيام، فهذه هي تعرجات وجهه التي ارتسمت كشمس الصباح التي لا تغيب، وهذه بشرته السمراء التي أكاد أرى فيها تعب السنين مرسوم، وتلك عيونه التي تغزل الحب مثلك تماماً، لكأنه نصب للرجولة يتحرك أينما حل شعرت بها، رجولة تتفجر من بين أصلابه قوة وعنفوان وهيبة...

تمضي الأيام وتمر، يدوسها العمر بقدميه الحالمتين والحافيتين كطفل من أطفال غزة! مايزال مرابضاً على الرصيف، قد يدوس وردة! فنفرح، وقد يدوس شوكة فنبك! وقد يدوس شمعة فتحرقه ويحرقنا! من دون قصد...

لكن كوني موقنة أن الأزهار لاتترامى في الطرقات أبدا، لأنها لاتزرع في طريق السائرين وحدهم بالظلام.

أتراك تعرفين السير في الظلام؟ أتعرفين كيف يكون؟ وهل تعرفين هبات الريح التي قد تحاصرك دون سابق إنذار، وتختلجك قطعاً أصغرها لايكاد يرى! أتعرفين عاقبة هذا النوع من المشي؟ أحدنا قد يحمل عقلاً مجنونا ويختار السير في الظلام بمحض إرادته المريضة، والبعض الأخر يجبر على السيرفيه بمحض إرادته العقيمة! والبعض الأخر يتلذذ بقذف الناس فيه، كأنه يلقي بهم للهاوية، وقد ظن نفسه بلحظة خادعة أنه إله!؟ له الحق في تعذيب الناس في نارالعذاب، وله حق في منح غيرهم السعادة،

لكن هيهات! فليس هناك سوى الله الأحد. ملك الملوك وحسبك غروراً أيها المغتر بسلطتك ونفسك الحقيرة.

وانتهت الإنتفاضة، وكالعادة، أقصد كعادة العرب (ندين..ونشجب...ونستنكر) ثم معاهدات لاتتعدى حدود الورق وإيطار الحبر الذي تكتب فيه، تنص على أن يعود كل شئ كما كان، وياليتهم يعودوا، وياليتنا نعود كما كنا:أمة رجال!

لكن والدي لم يعد، لم يكن اسمه مدرجاً على لوحة الشرف، شرف الشهداء، فهم الشرفاء في زمن عز فيه الشرف، كما كان يقول دوما، بل دون اسمه: مفقود!

حاولت أمي البحث عنه، لكن دون جدوى، هناك من يقول أنه استشهد في إحدى المنازل التي هدمتها أيدي الإحتلال على رؤوس قاطنيها، وهو يعالج جريح، وقيل أنه سجن في إحدى المعتقلات المجهولة! ولا أحد يعرف سوى رب البرية..

ودولاب الأيام لا يتوقف عن العد، وتمضي سنون العمر، ولا أحد يدري في أي دهليز يقطن أبي!

ولا يمضي يوم إلا ونجتر فيه الذكرى لتذكره! فخمس سنوات لم تنسنا لمسته الدافئة وعيناه الغارقتان في الحلم، لم أكن أعرف أنه سياتي اليوم الذي أنسى فيه طعم الحنان، وتذبل في قلبي كل أثاره لأتجمد

وأصبح قالبا من أسمنت أو جليد، وأن لمستك وحنانك هما اللتان ستذيبان هذا القالب وتعيدانه من جديد، لكن ها انا الأن أتحول مرة أخرى لقالب، أكثر قساوة وموت، فهل سأعود من جديد للحياة، إجابة السؤال لديك حتماً! فهلا أخفيتها حتى لا يسمعوك ويجمدوك مثلي!!! عذرا فقد أخطأت!؟ فأنت الروح التي لا تقبل التجميد والتحويل، أنت البركان الثائر في أصلاب جسد صغير، أنت الحياة الكاملة والمعاني التي لا تقبل التفسير.. أنت العقل والكبرياء؟ أنت الرفض والكرامة أنت كل التناقدات التي تجتمع معا في هذا الزمن! ربما ليست تناقضات وإنما العالم المجنون يراها تناقض، أنت الحكمة والذكاء وكل مقومات الحياة... أنت أنت إذا لا أعرف وصفاً لك!؟ إمرأة مستحيلة في زمن عجز المستحيل فيه عن الإتيان بمستحيل أخر مثلك!؟

كبرنا، وزدنا حبا في الحياة أملاً في أن يعود، وكأننا صغار خرجت من بيضة قشورها ذات بهجة وجنون!

وفي يوم من الأيام...أه..كم أحاول أن أجهز أسطول الذكرى لأتذكره، فكم كنت أحاول أن أنسى، فنسيت كيف أنسى ولم أنس ما كنت أريد نسيانه، بل وأنسى أيضا دواخل روحي وجروحي المشققة.

تلك الدواخل التي تنبض بذبذبات الحياة ومقوماتها، إن كان الموت علاجاً ناجحاً للنسيان فأنا أرحب به، لكنه الأن أصبح صديقي،

كثيراً ما يزورني لكنه مصرٌّ على أني ما زلت ثمرة عجراء، لم تنضج بعد ليقطفها، فأعبث بمعوله ذاك وأمتطيه بدلا من حصاني الذي لم يشتره لي أبي، وأتراقص بين مخالبه واصطنع السقوط عله يكتشف نضجي من بين كل الثمار، لكن دون جدوى، ربما لأن سقوطي من نوع أخر، فسقوط الأمل دائما يكون لأعلى، أما السقوط الحقيقي يكون لأسفل، فهل أقلب الصورة ليصبح سقوطي طبيعياً، في عالم غير طبيعي، هل أستطيع!

في ذلك اليوم، مرضت فيه (حياة) كثيراً، لم تستطع أن تذهب معي للمدرسة، فلقد كانت في الأونة الأخيرة تتعب نفسها كثيراً، كنت أشعر بذلك وكنت أشعر أيضا بأن روحها تكابر المرض، لكن روحها المريضة بحب الحياة كانت أقوى في عناد إحساسي بها، فهكذا هي جسد بروحين إحداهما يضعفها القلب فتختفي بالأخرى المحبة للحياة، كيف لا واسمها (حياة)، لكن عزيزتي لا يكفي حب الحياة لنعيش، فقد يسخر الموت منا، إن كنا نعيش فقط لأنا نحب الحياة، أخبرتك سابقا أن الحياة في هذا الزمان تستوجب القسوة، وهذه الطيبة الساذجة التي نعيش فيها لم تعد تنفع، فإن كنا جسداً طرياً مشرعاً للجميع فعلينا إذن تحمل تبعات تلك السكاكين التي سرعان ما تندس فينا، بل ولن تكتفي بذلك ستقطعنا دون رحمة، لذلك وجب الحذر، صدقيني عرفت ذلك مؤخراً...

استدعت أمي الطبيب (عامر) صديق والدي القديم ليقف على علاجها، بأمر الله، وأجبرت انا على الذهاب للمدرسة وحدي، لكن صدقيني رأيتها أمامي...اورأيت كيف كان يثقل قلبها بسماعته الثقيلة التي كانت بالكاد تسمع نبضها، وكيف غرس الحقنة بمخالبها الحادة في ذراعها الغضة، لم أكن أدري أنه يغرس سكينا في قلبي ليستولي على كل شئ في أركاني، لم أكن أدري أنه جاء ليعينا، لا ليعالج قلب اختي، جاء ليقطعنا إربا بحجة الشفاء، وأي شفاء هذا الذي تدعيه، يا رجل حول كل مقايس الدنيا لسراب وخراب في آن، لم أكن أعرف أنه لا صلة بينك وبين اسمك، كان الأجدر أن تنادى..خرابا... لا عامرا؟ فقد جئت لهدمنا بحجة إعادة البناء من جديد!

كثيرة هي اللحظات التي كنت أعود بها بروحي حيث اختي لأطمئن عليها،وكنت أستيقظ على صوت معلمتي التي كانت تعرف أني لم أكن هنا، بل انا حيز تشغله المادة، جسد عدٌّ فقط من الحاضرين، وهكذا كثير من الناس، مجرد أعداد فقط لا غير، أعداد لا حصر لها لكن دون نفع أو قيمة، دون أدنى أهمية، كتل بشرية لا هم لها إلا الأكل والنوم وكأنها حيوانات ترتع، تزيد من عبء الحياة ولكن على حساب من...حسابنا نحن؟!

وكدت أطير، وأسابق الريح في نهاية يومي الدراسي إلى المترل، لأعرف ما الذي حدث لها، كانت اللهفة تستوطن بداخلي فلقد عرفت

كيف تتسلل إلي، هي نفسها اللهفة التي كنت أشعر بها عند لقياك، لهفة من فرط سرعتها تكاد تستدرج قلبي للهاوية، ويسبح عداد الزمان بعيد جداً عني، لكأنه من عصر حجري، جاء في زمن الألة التي تعشق السرعة، سرعة في كل شئ، في الأكل والشرب، والرقص، وحتى الموت...أجل سرعة في الموت تحصد أفئدة لا أجساد، تجعل منهم قبوراً متحركة، وكم تراكمت عليها طبقات الصدأ التي يصعب الأن زوالها.

دخلت المترل، أسرعت إلى أمي أسألها عن حالها، أخبرتني بأن اختي قلبها ضعيف، وأنها لن تحتمل أي مجهود تقوم به وأنه لا علاج لها الأن إلا الراحة فقد ولدت بقلب ضعيف، وأنها نادراً ما ستأتي معي للمدرسة لتصحبني من جديد... وبكت!

عندها أسرعت... دخلت الغرفة و اقتربت منها...شعرت بي، جلست بقربها،وقد علت بسمة رقيقة شفتيها الرقيقتين...

كل الرضى كان مرسوماً على شفتيها، كل الأمل بالله عرفته منها، كانت شعلتي التي توقدني في هذا الزمن، لم أكن أعرف أن هذه الدروس لن أتعلمها إلا فيما بعد.. دروس الرضى، وأن دفعات الأمل هذه سيأتي يومها وإن تلاشت للحظة، فسرعان ما تتوقد من جديد.

عندما شعرت بي قالت: لا تقلقي علي... انا بخير! هذا قدري والحمد لله.

كانت تعلمني كيف أحمد الله في كل حال، لم أكن أدرك ذلك حينها، رغم أنها توأمي إلا أني كنت أشعر أنها تكبرني بسنين، وأن لها عقلا يعلو على عقلي آلاف المرات،كان لها فلسفة غريبة في الحياة كما لك أنت،و لم أكن أعرف أن للحياة فلسفة! هل تعرفين، كنت أعيش بسذاجة، لكني الأن عرفت وياليتني لم أعرف!

ألكل شيء فلسفة؟هل للغاصب فلسفة يا ترى عندما يغتصب وهل للمغصوب فلسفة ينهجها ليعرف كيف يغتصب؟! أو كيف سيتم اغتصابه؟! هناك من يعيش على خطط سريعة التنفيذ ويفكر فقط أمام عينيه، وهناك من يعيش على خطط بعيدة الأمد قد تحتاج لسنين لتنفيذها، و لم أكن أعرف أن هناك خطة ما تحاك الأن، ليتم تنفيذها قريبا و وانا خيط من خيوطها، أو ربما عثرة في سبيل تحقيقها،لكن لمصلحة من؟! هذا هو السؤال؟

كانت إن تحسنت صحة اختي صحبتني للمدرسة، وإن شعرت بالتعب يتغلغل فيها، ويجلجل في أركانها لزمت الفراش،، وعند عودتي كنت أعلمها كل شيء، وكانت فرحة سعيدة بذلك..

لم تكن (حياة) مجرد أخت لي، أو حتى توأم، بل كانت أكثر من مرآتي، وحياتي كلها كما كانت حياة والدي من قبل، أناقشها،

وتناقشني، نتحاور، أطلعها على قصائد شعري الهاربة من رحم القلم وتبدي رأيها بكل صراحة.. وحب!

كانت نور عيوني الذي فقدته، وعاد واشتعل من جديد بك، فأنت نور عيوني الثاني الذي اتقد من جديد، فأرجوك سيدتي أعيدي إشعاله من جديد قبل فوات الأوان، فما زال هناك بصيص أمل، أعيدي إشعاله من جديد فأنت وحدك بقدرة الله، القادرة على فعل هذا، وليسخرالظلام مني الأن، فانا الكفيفة التي رغم عينيها المفتحتين لا تبصر إلا بنورك، نور الحكمة والعقل والهداية، انا الكفيفة التي تتخبط يمنة ويسرة باحثة عن أي سبيل يهديها لنجاة دون أي خسائر.. لكن رويدك فقد أيقنت بأن ما يسلب بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، لذلك لابد من وجود خسائر، فهي معركة إذا، ولن أخرج منها إلا مدماة اليدين والقلب معاً، حتى وإن كنت المنتصر،فهذا هو واقع الإنتصار، وليشربوا كأس الحياة، ويرتعوا بها الأن، ريثما استيقظ!

كنا دائما نحب أن نقضي وقت الإستراحة في المدرسة بالحديقة هناك، نستظل بظل شجرتي اللوز والزيتون... فنحن من زرعناها ذات جنون مدرسي أطل بنا، كنا نستمتع بمنظر الأشجار تكبر فينا على الأرض، وتزهر أغصانها كشئ يسقينا روعة الحنين، وخصوصاً شجرة اللوز التي تزهر قبل كل الأشجار، ونحن نعشق جرأتها وأزهارها التي تنمو بخجل.

لم أكن أعرف أنك أنت الأتية عبر بوابة الزمن لهذه المدرسة ستجلسين تحت ظلها، لو كنت أعرف لسقيتها بماء عيوني، لم أكن أعرف أن أنفاسك ستتحد يوما ما..ساعة ما... لحظة ما...مع أنفاسها، وأن نبضك الذاكر للواحد سيسبح حمدا لله في أوراقها المتناثرة مثلي انا، أيتها الرائعة بكل توحد مع ما يحيط بك، وأنت التي أحلت كل جماد حولك ليعيش حياة أخرى ذات طابع خالص، أذكر جيداً عندما كنت تنصتين لحجارة وأشجار، تملئين كل الأرواح حولك رهبة لنسمع صوت تسبيحها، لا بأذاننا ولكن بأرواحنا، على يديك عرفت أن الروح لها أذن وقلب، عرفت أن الروح لها إحساس ومشاعر أخرى، وأن للروح حياة وغذاء تختلف عن حياة الجسد وغذاؤه، وأن الحيوانات وحدها هي التي لا تعرف حياة الروح ورقتها وعذوبتها...

أذكر جيدا عندما سألتك بعد أن خبرت شئ من فلسفتك تلك للحياة: هل أنت صوفية؟

عنها ضحكت كثيرا...حتى ظننت أنك لن تتوقفي عن الضحك، وأني أخطات بسؤالي، لكنك مسحتي على رأسي بحنانك وقلت: لا.. أنا روحية فقط!

لم أكن أعرف أنها ملة جديدة ابتكرتها أنت، بروحك العذبة أنت، والراقية التي تعلو للسمو.. فهلا أخذتني معك لملتك تلك أرجوك.

كيف أدخلها، وكيف أكون جزء منها؟ أخبريني عن السبيل لعلي أجد ما أبحث عنه بين خلجاتك أنت؟!

أتصدقيني إن قلت لك أن جلستك تحت الشجرة تشبه جلستها، وأن لمستك للأغصان هي نفسها لمستها! لم أكن أعرف أن شجرة الزيتون في شرقي المدرسة ستكون مرتعك، وأن شجرة اللوز في غربي المدرسة ستكون عشقك للتفكير في جمال خلق الله، ودعوة لتسبيح روعة صنعه! أه كم أطوق لزيارة المدرسة الأن..لكن عندما تكونين فيها...

وما الحياة إلا مدرسة كبيرة نتعلم فيها لكن ليس هناك صف نهائي، فأنت منذ أول وهلة ستدرك أنك لن تتخرج منها إلا إلى القبر، ولن تحصل على شهادة عليا تتباها بها بين الناس إلا العمل الصالح... وإرثك من دينك!؟

وفي لحظة من الزمن، سرقناها في أخر يوم ذهبنا فيه سوية للمدرسة،أصرت(حياة) على ذهابنا إلى حيث شجرة اللوز في الحديقة قبل مغادرتنا للمدرسة،لكأنها كانت تودعها، وكان هذا القلب الذي تضمه رغم ضعفه عن النبض إلا أنه يملك قوة غريبة على الإستشعار بما قد يكون، أو ما سيحصل، وعندما لمست أغصان الشجرة وانحنت تقبلها بأناملها الغضة، سمعت صوتاً... توقفت.. لعل الإشتهاء الذي سكن روحها وجعلها تحب الحياة، هو نفسه الإشتهاء الذي سكن

روحها لتشعر بكل شئ حولها مثلك... وقفت تصغي.. وقد سمعت صوت هديل حمامة..

أطرقت تسمع وتبحث... من دهشتي بت أرقبها متجمدة في مكاني، رقدت للحظة، وانحنت بعدها مثل سنبلة ذهبية والتقطتها...

حمامة صغيرة جريحة، لا أعرف كيف سمعت صوت هديلها، أو كيف شعرت بها...

مسكينة تلك الحمامة، ترى ما هوذنبك ليجرحوك هكذا، ألم يشفع لك لونك الأبيض، وقلبك الرقيق الذي يرتعش بين يديها، من الذي جرح جناحاك هكذا بكل قسوة...

واستيقظت من تساؤلاتي تلك على صوت (حياة) يناديني: (امل) إنها جريحة..سأخذها معي للبيت وأعتني بها....

ولمستها لمسة أم تلاعب طفلتها المدللة، وهمست لها: لاتقلقي.. ستكونين بخير.. سأعتني بك يا صغيرتي... أجل. لمستها كطفلة! هل تذكرين لمستك لي؟ وهل تذكرين كيف كنت أرمي بجسدي بين أحضانك لأرتع فيه؟ هل تذكرين ذاك الحنان الذي كنت أستنشقه من يديك كعطر شذاه يسمع...

انا الجريحة في مهدي،جرح أبدي في قلب يترف، هل كانت تكفي لمستك.. بل كادت تكفي..!؟

كم كنت أغبط تلك الحمامة في تلك اللحظة، لأنها استولت على اهتمام اختي الدائم، لم أكن أعرف أن (حياة) سترحل وتترك لي الحمامة ذكرى لأعبث بها وتعبث بي،،بالحقيقة. كان رحيل (حياة) ليس إلا رحيل لأحلامي، والحمامة ليست إلا وعود ما تكاد يدي أن تقبض عليها إلا لتسافر بعيداً، وأكتشف أني ما كنت أمسكه، أو أحاول أن أمسكه ليس إلا وعوداً حالما تطير في الهواء دخان، ترحل بلا عودة، ومع ذلك فأن لهذا الدخان فائدة، فقد يرسم لك ظل من يتربص بك، وقد يستجلب الأمطار في عالم الجدب.. ربما ولكن يبقى دخان خادع، لنفسه ولنا....

وهكذا أصبحت الحمامة جزءا منا في المترل، لم أر السعادة في وجه حياة طوال عمري، مثلما رأيتها في تلك اللحظات... فقد بنت (لجمانة) **الحمامة** – هكذا اسمتها- عشاً صغيراً على النافذة، وضمضت جناحها المكسور، وأطعمتها...

قالت لي أن الرابط بين الحمامة واسمها فريداً جداً، حيث أن جمانة تعني اللؤلؤ المنثور، وهي رمز لكل شئ ثمين، وكذلك الدموع ثمينة أيضاً، لذلك لا يجب أن تستقر الدموع في الأهداب، بل يجب أن تسافر للسماء وتكتب على طبقاها شكوانا لله، فهو وحده الذي سيحافظ على هذه الدموع الغالية ولن تضيع على عتباته أبداً، وكذلك الحمامة، التي تسافر الى أعالي السماء، فمكانها هناك لا على الأرض، وهذا يجب أن

نتذكر كلما رأينا الحمامة (جمانة) أن دموعنا يجب أن تسطر بين يدي الله شكوى، له وحده فقط...

كانت تظن أن الحمام مكانه السماء فقط، لم تكن تعرف أن هناك نوع من الحمام يبقى في الأرض تحت الهاوية، لكن الجزء الأكبر منها يبقى معلقاً بين السماء والأرض، لا يعرف كيف يستقر على الأرض التي تحولت في هذا الزمان إلى رمال متحركة تبتلع كل شئ تصل إليه براثنها... ولا يعرف كيف يبقى معلقاً في جو السماء فقد أعياه التعب.. والحلم!

لم تكن تعرف أن هناك جزء من أحلامنا سيبقي معلقا هكذا في السماء بانتظار أرض صلبة يقف عليها،يبدو انا لا نعرف في هذه الدنيا شئ؟!

وأيضا لم أكن أعرف أنك ستأتين بعد عهد من الزمن لتعلميني فلسفتك في الدموع، تلك الفلسفة الفريدة التي صرت أنفذها بكل صفاتها لأني شعرت بأني أقوى بها.. لكن ما اللذي سيهزمني ياترى؟

وهكذا عاشت معنا (جمانة)، كنت دوماً أحب أن أطعمها السكر، فقد علمت أن الحمام إن تناول السكر سيتعلم معنى الوفاء، لكن (حياة) قالت لي: أن الحمام ليس كالبشر، فما دمنا أحسننا للحمامة ووجدت في أكنافنا الأمان فإنها ستعرف معنى الوفاء بلا شك، فمن لم

يجبل على الوفاء لن يكون وفياً حتى وإن أطعمته أرطالاً من السكر، ومع ذلك كنا نطعمها السكر لأن جمانه تحب السكر. علها تجمل طعم الحياة الذي تتجرعه مراً وحنظل.

هل تعرفين أن الشعور بالأمان يولد الوفاء، وهذا ما أحمله في قلبي تجاهك، وسأبقى أحمله حتى أخر يوم في حياتي.. الوفاء لك غاليتي. لأنك قدمت لي وبلا ثمن..

وعندما كنا نغلق النافذة مساء، كنا نسمع نقرها على الزجاج عند الفجر، كأنها توقظنا لصلاة الفجر، أجل عزيزتي فالأحلام وحدها لا تكفي لتتحقق بل يجب أن نستعين بالله من أجل تحقيقها، ولكن حسبك.يجب أن تكون الأحلام صحيحة سليمة خالية من التشوهات والعلل حتى تتحقق بفضل الله.

يا إلهي...كلما غصت في الذكرى، شعرت بأني جسد مضمر،أهكذا يتعب من يتذكر الماضي؟ بل وكم تعبت لأحاول أن أنسى! ويا ليتني نسيت! ويا ليت الذكرى نستني!

كيف ينسى المرء!؟ بل كيف تستحضر الذكرى! وكأني مسكونة بشياطين الماضي! وكأن جسدي المتهالك هذا مأوى لألعابهم؟! هل أذهب للعرافات كي أطرد شياطين الذكرى من جسدي، هل يجدي نفعاً ذلك السحر! أم سيقوم العراف باستدعاء ملك الشياطين ليسكنني.

حتى يطرد صغارها، وأكون بذلك طردت الصغار واستحوذ علي الكبير!؟ سأكون ألعوبة في أياديهم فلن يتركوا جسدي هذا دون إحتلال من نوع ما، هل أسخر من علمي وديني إن فعلت هذا؟ أم أسخر من نفسي؟!

لست أدري كيف بدأ الأمر..... أمي!

أمي تريد أن تتزوج؟!

هذا ما قالته لي (حياة)..هي لم تخبرني بذلك؟ أوكلت اختي أمر إخباري.. لأنها تعرف تماماً أني لن أوافق على ذلك، ليس لشئ سوى أني موقنة بعودة ابي.. سيعود صدقيني وإن طالت خيبته سيعود؟! أقصد غيبته... غيبته. أجل غيبته؟!

من الذي قال خيبة! وما هي الخيبة! نحن العرب لا خيبات لنا أبدا! نحن أمة انتصارات وحسب،لذلك لا نهزم! والدليل على ذلك وحدتنا! حقا!؟ انظري حولك قد تعرفين صحة كلامي!؟؟!

ابي... هناك ما يمنعه من المجئ الينا صدقيني، لكن أمي لا تريد أن تنتظر، تستعجل الأمور دوما، فقد ملت الإنتظار، ولم يعد لرأينا أي وزن، أو أدنى أهمية! فقد استخرجت الأوراق اللازمة من المحكمة للتزوج وأثبتت وفاة والدي، بعرف أنه مفقود! وذريعتها أنها تخشى على نفسها من الفتنة فالزواج حصن لها!

لا أعرف لماذا حينها فقط شعرت باليتم! أم أني يتيمة منذ الأزل،لكن الأن فقط صدرت الأوراق التي تثبت ذلك.

من هو اليتيم ياترى؟ هل أكون يتيمة وأبي وأمي على قيد الحياة؟ من ياترى يمسح دموعي ويربت على رأسي! صدقيني لا أحد!! حتى أني لا أذكر لحظة عانقتني فيها أمي، أو ربتت على ظهري..لاعبتني.. وقبلتني مثل الصباح على جبيني... لا أذكر مرة بت فيها بين أحضانها، واغتسلت بدموعي على صدرها، لا أذكر لحظة نمت فيها بأمان وانا أعرف أنها بجواري، ترمقني بعينيها، وحتى أني لم أر الدفء فيهما،و كل ما كنت أراه في عينيها الغربة والبعد عنا..

وأي يتم أعيشه بين أب ضائع، وأم غارقة تبحث عن شهواتها ولذاتها، نسيت أن لها أبناء، وذهبت تبحث عن متعة الشهوة... بالحلال! أجل هكذا كانت تظن!

لكن لأصدقك القول، ذاك الذي شعرت به حينها ليس يتماً وإنما، كان شعور بالضعف، واليتم الحقيقي شعرت به حقا عندما تفرقت بنا السبل وغدا البعد عنك أمراً لافرار منه رغما عني، و بفعل الحاقدين.

لكم كنت سعيدة عندما عرفتك، عرفت فيك الأم التي أبحث عنها، عرفت حنانك، وصدرك الدافئ الذي أرتمي فيه بلا قيود، عرفت فيك كل شئ أتمناه وحرمت منه، عرفت شذا يديك، عرفت كيف

يكون نبض قلبي جزء من نبض قلبك أنت، وفقط أنت، كنت تزرعين بداخلي كل القيم والأخلاق، الدين الراسخ والأمل.. أجل الأمل بالله!

لكن (حياة) كعادتها، وبرقتها التي تشبه نسيم الصيف هدأت من روعي وقالت: لا يمكننا منعها من حقها الشرعي، أو حتى إجبارها على الإنتظار.. هذه مشيئة الله تعالى!

كانت انهزامية بعض الشيء بقرارها هذا، ربما لأنها تعرف تماما أن ما باليد حيلة، وكذلك استسلم جنوني للأمر الواقع، لكن صدقيني لو كنت أعرف ما الذي سيحدث لأقمت الدنيا ثورة وما رضيت بالإستسلام! لأعلنتها حرباً تشعل كل شئ حولي، وليحلو الرقص على الجراح الذائبة والممزوجة بالألم؟

لكني سألتها: من ستتزوج؟

قالت: الطبيب (عامر) صديق والدي!

قلت: لكنه متزوج!

- : وما الذي يمنعه من تكرار الزواج (مثنى وثلاث)...

- : أله أولاد!

- :لديه ولد واحد، شاب يكبرنا بسنتين أظن أن اسمه حربي!

- : هل سيعيش معنا!

- أجل! وقد أوكلت أمي له أمر التصرف بعيادة والدي والعمل بها حتى يقضي الله!

- وحربي هذا.. كيف سيعيش معنا؟!

- لا أعرف..أرجوك يا (أمل) لا تغضبي أمي.. دعيها وشأنها، فلم يعد الحديث يجدي نفعاً، فقد حسمت الأمر منذ زمن..

حقا، لم يعد الحديث يجدي نفعاً، فزمن الكلمات ولى، ولى فيمن لا يملك إحساساً ومشاعر لتستفزه الكلمات، زمن الكلمات ولى لمن لا يملك قلباً يتدفق فيه دم الحياء، زمن الكلمات ولى. لكن ليس عند الجميع!

ولم أكن أعرف أن حربي هذا سيكون حربي انا! وحدي؟!

وهكذا تزوجت أمي من عامر، ولما عدت من مدرستي رأيته، وقد كان رجل ملتحي، هناك سمة في جبينه تدل على كثرةالسجود، المسبحة لا تكاد تفارق يمينه، أقصد شماله...لا أعرف لماذا راودني شعور بأن هذا المشهد يتكرر كثيراً في شاشات التلفاز، لكأني رأيته من قبل، وكأنه محترف يرسم كل شئ على وجهه مثل قناع خادع، يزرع ويترع، لكن القناع لا يخفي العينين، هذه حقيقة! لكني تساءلت- وما أكثر تساؤلاتي البلهاء هذه- هل حقا سيكون هذا الرجل بديلاً لوالدي؟

ومنذ ذلك اليوم، وانا و(حياة) نلازم غرفتنا، نقضي فيها جل الوقت، أغادر في الصباح للمدرسة، ثم أعود لألزم الغرفة من جديد، ولا نخرج إلا لتناول الطعام.

وبعد عدت أيام، وكالعادة، خرجنا لتناول طعام الغداء من غرفتنا مع أمي وزوجها وابنه، كنت أسند (حياة) لأن صحتها كانت متعبة جداً، وعندما أجلستها على الكرسي، وقربت الكرسي الأخر لأجلس..

لاحظنا أن هناك نظرات تترامى من هنا وهناك، بين عيني امي وزوجها، ثم تجهم وجهه، ورمى الملعقة من يده، ثم طلب من ابنه المغادرة بعد أن غادر...

لا أعرف لماذا حينها فقط شعرت برعشة في جسدي؟!

نظرت حينها امي إلينا وقالت:- عزيزتاي يجب أن تلتزما بالحجاب في المترل فعامر يخاف أن يقع حربي في الحرام فلا يريد لابنه النظر إليكن حاسرات الرأس أرجوكن أن تلتزمن بالحجاب في المترل!

شعرنا عندها بشعور غريب هذا مترل وألدي يعني مترلنا، وهو الغريب في بيتنا، أن كان يخاف على ابنه من الوقوع في الحرام هكذا فلماذا يعيش معنا في بيتنا، أتعرفين لم أكن أعرف ماهو الحرام وما هو الحلال؟ لم أكن أعرف أي شئ في الدين على الرغم أني مسلمة منذ الولادة.. حقا كم من مسلم لا يعرف من الإسلام إلا خانة صغيرة

تجلس في الهوية مكتوب فيها: الديانة: الإسلام. وكم من مدعي للإسلام يظنه لباساً فقط فينسب نفسه إليه، فهم لا يعرفون أن الإسلام دين متكامل، عبادات ولباس، ولا حرج في اللباس أن تمت العبادات. لكن الخطر كل الخطر في اختزال الإسلام بصورة اللباس، ولكن عرفت منك أن من ترقى روحه في العبادة لابد وأن تنعكس على ملبسه وهيئته، ليرقى في سماء حب الله، فالمحب لمن أحب مطيع! فكيف لا أقول بعد ذلك أني عرفت الإسلام حقا عندما عرفتك..

نظرت حينها لعيون حياة التي اغرورقت بالدموع وتحركنا بشكل تلقائي منسحبات من المكان وهاربات للغرفة.. غرفتنا؟!!! سأعترف لك لقد أدركت من البداية أن هناك غريب في بيتي، وكان علي منذ البداية أن أتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسي، خطوة الحجاب؟! من دون أن يجبرني أحدهم بذلك!

الحمد لله أن زوج أمي لا يدخل غرفتنا هو وابنه وإلا كانت حياتنا ستتحول إلى مأساة أكبر!! ومنذ ذلك الوقت ونحن نتناول الطعام في الغرفة وكأنا نعيش في عالم أخر يختلف عن العالم الذي تعيش فيه أمي وتراه بعيني زوجها!!

في هذه الحقبة من عمري انصهرت نفسي بنفس حياة وكأننا جسد واحد من روح واحدة كنت أشعر بأن قلوبنا أيضاً واحدة وأرواحنا متحدة حتى الدم والعروق

نلاعب بعضنا بعضاً وفي وقت الفراغ كنت أكتب الشعر وهي تعتني بجمانة التي أصبحت جزء منا

عندما أكون انا في المدرسة تشغل هي وقتها بتصفح كتاب علمي أو رواية أدبية.

كنا نحاول أن ننسى شعورنا باليتم جراء بعد أمتناعنا، اقصد أمنا، فتقوم كل منا بدور الأم للأخرى دون أن نشعر لكن حياة كانت أكثر تفهم مني للوضع الحالي كانت كالبلسم الرقيق لكن ذلك لم يستمر..

بدأت صحة حياة بالتراجع ولم تعد تقوى على مغادرة السرير شعرت بأن أنفاسها مختلفة استيقظت من نومي على صوتها وهي تحاول أن تترع الأكسجين من الجو قفزت من سريري إليها مسحت حبات العرق من على وجهها شعرت بالعجز حينها لم أعد أعرف ماذا أفعل؟؟

هل تعرفين العجز؟ لا أظنك سمعت بهذه الكلمة أبداً. يا امرآة لا تعرف العجز لأنها معجزة ربانيه خالصة، بل هدية من السماء بعثت لمن عرف قيمتها..

هل أسرع وأيقظ أمي وزوجها أم أحمل أختي لأقرب مشفى عندها بدأت نفسي بصراعها الداخلي ماذا أفعل؟؟؟ لحظات مرت بي وكأنها ساعات وأنين أختي يلازمني مثل دقات قلبي أو أشد نفرت حينها وأسرعت إلى غرفة أمي نسيت أن أضع الحجاب على رأسي من فرط سرعتي أيقظتهم صرخ بي زوج أمي عندما فتح الباب وقال - ماذا هناك!! أقامت القيامة؟ بدأت أتلعثم حياة إن........إن حياة متعبة إن.... إنها مريضة ت....ت.... تكاد أن تموت أسرعت أمي وأسرع عامر زوجها للغرفة حمل الحقيبة فحصها حقنها ثم نامت وعندما خرج صرخ بي أكل هذا الوقت وأنت حاسرة الرأس؟؟! أين حجابك؟؟؟ إن حربي يقف هنا ألم يعلمك والداك الأدب والأخلاق والدين

صعقت حينها من كلماته وكأني تحولت لتمثال جامد من الصدمة سارعت أمي لتسأل زوجها عن حياة فقال:- لا شي تجيد التمثيل حقاً!؟ تريد أن تفسد علينا ليلتنا

لم أصدق حينها ما قاله لأني أعرف حياة حقاً أسرعت للغرفة وحاولت أن أنسى ما قاله عن الحجاب جلست بقرب سريرها..

شق الصباح نوره لأجد يد حياة على جبيني فقد نمت وانا جالسه بقرب سريرها ابتسمت لي برقة وفجأة دخلت أمي الغرفة لم يكن وجهها كما أعرفه صرخت:- ما الذي فعلتماه بالأمس!؟

قلت:ـ ما بك يا أماه! لم نفعل شيء!

أمي:- أيتها الشقية كل ذلك من تدبيرك انا أعرف أن حياة لا تفعل ذلك يكفيكن تمثيلا تزوجت وانتهى الأمر وأنت يا حياة منذ متى تمثلين وتتدعين المرض؟

قلت: حياة فعلا كانت متعبة وانا من أخبركم بذلك ولا دخل لها!

أمي:- أتصرخين بوجهي! و صفعتني! ثم خرجت!

عندها ألقيت بجسدي بين أحضان حياة، غرقت في دموعي لم أعد أصدق ذلك! وكعادتها حياة أخذت تهون عني حزني..

حياة:- هيا يكفي هذا أنت أقوى لا تقلقي سأقبلك فيزول الألم!؟ أليس هذا ما كان يفعله والدي! ثم ضحكت بحزن رفعت رأسي من بعد أن دفنته في أحضانها وقلت:- يا ليت والدي هنا!؟ وإن قبلت خدي فلن يزول الألم لأن الألم حفر عميقاً في قلبي صدقيني لم أستطيع أن أنسى ذلك، ربما كان حقداً! لا تفتشي في داخلي أكثر فقد أثقل القلب بمثل هذه المواقف ولكن حذاري فالألم الحقيقي لم يأت بعد!؟؟

وبعد عدت أيام وكأن الزمن يعيد لعبته السابقة معنا وتعود حياة لمرضها من جديد

لكن السبب كان واضحا هذه المرة:- وهو أن الدواء قد نفذ منذ أمس و لم تتناول حياة دوائها اليوم وقد أخبرت حياة أمي عن نفاذ الدواء لكن... يبدو أنها نسيت جلب الدواء لها وها هي الأن تتلوى من الألم، لم أكن أعرف أن الدواء نفذ لو كنت أعرف لجلبته لها صباح اليوم لكنها لم تخبرني..

لكن.. الأن حياة متعبة وبحاجة للدواء وإن خرجت من الغرفة وأيقظت أمي وزوجها سنعاقب وإن بقيت ستموت حياة عندها عزمت أمري سأخرج!؟ أجل سأخرج لجلب الدواء وليكن ما يكون لبست ملابسي بسرعة! ووضعت حجابي وحملت بعض المال نظرت إلي و لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة

! فتحت الباب بهدوء.. أخذت خطواتي بسرعة، الظلام يسود المكان دقت عقارب الساعة لتعلن أنها الحادية عشر ليلاً، المطر بالخارج يهطل غزيراً، حاولت فتح الباب لكن لا جدوى إنه مغلق بإحكام يا إلهي ماذا أفعل؟؟؟ ستموت حياة إن لم أجلب لها الدواء اعتصرت من الألم والدموع بعيوني تحاصرني وفي لحظة تذكرت النافذة التي تطل على الشارع في غرفتنا أجل سأقفز منها!؟ وبالفعل قفزت من النافذة وركضت حتى الصيدلية دخلت قلت:- أرجوك يا عمي أريد الدواء الذي كنا نأخذه من عندك لحياة إنها متعبة ولست أملك وصفته ولا أعرف اسمه!؟

قال:- رويدك أنسة أمل انا أعرف الدواء جيدا فأمك تأخذه من عندي بداية كل شهر لكنها لم تشترمني هذا الشهر.

وبسرعة أخرجت ما في جعبتي من مال وسألته عن ثمنه لكنه لم يأخذه مني وقال:- بنيتي أسرعي لاختك فالمال لا قيمة له الأن..ولن ينفعنا إن فقدنا من أحببنا..

لم أستطع شكره لشدة سرعتي جذبني حبي لأختي من لساني وخرجت بسرعة... ولكن... حربي ابن زوج امي إنه بالشارع مع رفاقه في هذا الوقت للأسف شاهدني!؟ ركض إلي بسرعة جذبني من ذراعي كما الشاة وصرخ ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت؟؟؟! يبدو أن والدكن لم يعلمكن و لم يربيكن وأخذ يجرني على الأرض و لم يفتح لي المجال لأتحدث وصلنا المترل فتح الباب وكان يملك مفتاح للباب. باب مترلنا، أيها الغريب بأي حق تملك مفتاحاً لبيتي؟؟؟ وانا لا أملك مفتاحي!!

صرخ بي... ادخلي... وانهال علي بالضرب والشتم خرج زوج امي وامي من الغرفة يسألونا عما كان صرخ:- هذه ابنتك.... جلبتها من الشارع لماذا لم تعلميها الدين والأخلاق؟؟؟؟؟

اقترب زوج امي مني وصفعني وقال:- ماذا كنت تفعلين في الشارع بهذا الوقت؟؟؟ كيف خرجت أين تريدين أن تهربي يا..

وقال كلمة لو وضعت في بحر لأفسدت ماءه فصرخت بهم خرجت لأجلب الدواء لحياة إنها تكاد تموت أروجكم دعوني أقدم لها الدواء ثم افعلوا بي ما شئتم!!

في هذه الأثناء كانت حياة تسمع كل شيء حاولت النهوض من الفراش وصلت للباب لكنها سرعان ما سقطت على الأرض كالزهرة الذابلة...

هربت من ركلات حربي وابيه وأسرعت إلى باب الغرفة وجدتها ملقاة على الأرض أسرعت إليها لكنها لا ترد أسرعت بكأس ماء قدمت لها الدواء لكنها ايضاً لا ترد صرخت بهم:- افعلوا شيئا وكانوا قد تسمروا عند الباب فأسرع زوج أمي إليها ركضت انا لأتصل بالإسعاف وأخذت امي تبكي!!!

وصل رجال الإسعاف وحملوا جسدها الرقيق وكانت قد فقدت الوعي قفزت بجانبها وسارت السيارة التي نقلتنا إلى المستشفى وكأنها تشق العمر وتسابق الزمن

ضممت يدها قلت لها:- انا بحاجة لك أرجوك لا تتركيني...

صدقيني، عندها سمعت صوت نفسها من جديد دقات قلبها تنبض ما تزال على قيد الحياة!!! الحمد لله لحقت بنا امي مع زوجها في السيارة الخاصة بهم كانت حياة قد بدأت باستعادة وعيها وكان الصباح قد أشرق من جديد والحمد لله حياة أشرقت مع النهار وبعد عدة أيام قضتها في المستشفى خرجت حياة وعادت للمترل وعند عودتما أسرعت للباب استقبلتها بكل سعادة أمسكت يدها ورافقتها للغرفة عندها دخلت امي برفقة زوجها وبعد أن استقرت حياة في سريرها نظرت إلينا امي ملياً وبهدوء قالت:- ليس ما فعلت مصوغا لخروجك مثل اللصوص من المترل!!!!؟

زوج امي:- أمل أقدر أنك كنت تحاولين إنقاذ اختك لكن تصرفك خاطئ ولن أغفر لك ذلك ستعاقبين..!!!

وخرجا من الغرفة تركاني لتهبط على رأسي أسئلة تكاد تقتلني! من أنت لتغفر وتصفح! وهل حقا أستحق العقاب! ماذا كان يجدر بي أن أفعل! ماذا عساي أن أفعل؟؟؟

ابتسمت حياة ابتسامتها الرقيقة وهمست لي بعد أن جلست بقربها وبجانبها:- حبيبتي أعتذر منك كل هذا بسببي!

فقلت لها: حياة.. اختي عزيزتي..أنت حياتي، لا تعتذري، أنت سامحيني لما فعلت!

وإن كان يجب أن أغضب منك فسأغضب لأنك لم تخبريني أن الدواء قد نفذ قالت:- ظننت أمي ستجلبه لي كعادتها ولن تنسى قلت:- يجب أن نعتاد على أن حياتنا الأن لم تعد كالسابق نحن نعيش وكأننا نعيش لوحدنا ثم وضعت رأسها على صدري شعرت بالصمت يكبلنا للحظات وشعرت بدموعها تنسكب من على وجنتها لتستقر في صدري فضممت رأسها بين يدي وضلوعي شعرت بدفئها كما شعرت هي بدفئي كنت أظن أنه ليس هنالك ما سيفرقنا عن بعضنا كم صرت أفتقد تلك اللحظات ألا ليتها تعود!

ثم سمعنا صوت طرق على الزجاج زجاج النافذة إنها جمانة فتحت لها النافذة وأسرعت حياة تضمها وقالت:- يا شقية اشتقت لك!!

فقلت:- طوال فترة غيابك كانت تدخل الغرفة تجلس على وسادتك ويعلو صوت هديلها رويداً رويداً كأنها كانت تناديك فأسرع وأضمها وأطعمها وأحدثها عنك وأقول لها أن صحتك بخير صدقيني إنها تفهم الكلام قالت:- أجل إن روحها النقية تلامس أرواحنا فتفهم كلامنا...

كم هو جميل أن تغرق في لجة بحر الذكرى التي تنسيك حزنك!! وكم هو متعب أن تغرق في بحر سراب وأنت في صحراء مقفرة تستيقظ على وقع صفعة للهيب نار محترقه عجباً!! كيف احتيالي!!!؟

كيف احتيالي على الماضي والحاضر إنما هو احتيالي على الكلمات.... وأكمل ما أتذكر.. أتذكر ما كان سببا لطردنا الأول المباشر من مترلنا.

تأخذني أتون الحزن لأنسج خيوط شبكتي المدججة بالكلمات، علّ الكلمات تصف لك ما كان.. علها تستطيع..

كانت حياة تنام في غرفتها على سريرها وكنت انا عائدة للمترل بعد يومي الدراسة فتحت لي أمي الباب ودخلت المطبخ أما انا فخرجت إلى الشرفة أريد أن أقطف الورد الجوري الذي اعتدت أن أزرعه لأهديه لحياة هو نفسه الورد الذي أحب دوما أن أهديك إياه، كنت غارقة في اقتناء أزهاري الناضجة بالحمره!!!

شاهدته.... حربي! خرج من غرفته وأخذ ينظر حوله اقترب من غرفتنا فتح الباب أخذ يرقب حياة وهي نائمة إلهي إنه ينظر إلى مفاتن جسدها من بعيد؟؟ يترصدها! لفرط غضبي سقطت الأزهار مني على الأرض ودخلت اقتربت منه وصرخت: ما الذي تفعله هنا؟؟؟؟ أهذا هو الدين الذي كنت تحدثني عنه؟؟ إنك لست رجلاً ولا أعرف ماذا قلت حينها أيضا.....

اقترب مني وعلا صوته انا لم أفعل شيء ظننت أنها تنادي أنت فتاة غير مؤدبة لم يعرف والدك تربيتك!

قلت:- لا تذكر اسم والدي وإلا....

قال:- ماذا ستفعلين يا كافرة؟؟؟؟؟

و لم أدر كيف حينها صفعته فأعاد لي الكرة و لكمني بقبضته على عيني وخرجت أمي على صوتنا وكان زوجها قد وصل ورأني كيف صفعته وكيف لكمني....

صرخ بنا و لم يسمعني كالعادة

زوج أمي:- أنت حقا فتاة غير مؤدبة كيف تجرئين على ضرب حربي الذي هو بمثابة الأخ الأكبر!!!!؟

قلت:- لقد كان يختلس النظر لحياة وهي نائمة رأيته هذه ليست أول مرة!!!

زوج أمي:- أنت فتاة وقحة جداً

حربي:- نعم يا أبي إنها وقحة قد سمعت أنينها وأحببت أن أساعدها!!!

زوج أمي:- لقد علمت حربي الدين والأخلاق أهذا جزاء المعروف أو هذا جزاء الإحسان أنا الذي راعيتكم و أعتني بأمركم وأنتم تتهموننا بالباطل وتقابلونا بالجحود!!!!

قلت:- أي دين ذاك!! إن لم تصدقوا فإن الله رآه

و لم أتابع الحديث فقد صفعتني امي!!!

عندها انسحبت لغرفتي وأغلقت الباب وقتلتني الدموع كانت حياة طبعاً قد استيقظت من نومها لكنها لم تستطع أن تغادر سريرها وعندما أغلقت الباب حاولت أن أتناسى دموعي و ألمي كي لا تتألم حياة

نظرت إلي فاقبلت إليها وجلست بقربها وضعت يدها على خدي ولمستني برقة!!

عندها لم أتمالك نفسي وانفجر صمام عيوني وانهارت دمعاتي لتغرق وجهي لم أستطع أن أتحدث و لم تسألني هي عن شيء فقد شعرت بأنها سمعت كل شيء شقت الصمت وقالت:- هذه ليست أول مرة لاحظت ذلك منذ أول يوم رأيته فيه نظراته تكاد تلتهمنا يختلس النظر إلينا وكأنا صيد سهل كنت دائماً أغلق الباب بإحكام لكنه يغافلنا ويفتحه فليس هناك مزلاج لنغلق الباب ادعو الله أن يحفظنا

دخلت أمي الغرفة شعرت برعشة في قلبي وتسألت:- أحقا هذه امي!!!؟؟

قالت:- لماذا تفعلين ذلك؟؟؟ أتريدين أن تفسدي كل شيء؟؟ حقاً لقد تساهلت كثيراً معك!!!

قلت:- أمي يجب أن تصدقيني انظري إلى عيوني انا. لم أعتد الكذب وما هي مصلحتي يا أماه؟؟؟؟

قالت:- أمل يكفي هذا!!! لقد قررنا انا وعامر إنه لم يعد قادر على البقاء في هذا البيت مادمتن فيه وانا لم أستطع أن أتحمل أكثر ستذهبن يا أمل.. ستعيشين مع عمتك أما حياة فستعيش مع عمها وزوجته، منذ زمن وانا أفكر بالأمر وعمك لا يستطيع تحمل أعباء نفقاتكن معاً وكذلك عمتك لذلك ستعيش كل واحدة منكن لوحدها من الأن..

ستأتي عمتك لاصطحابك خلال يومين كذلك أنت يا حياة جهزن أمتعتكن.. وخرجت

لا أستطيع أن أصف لك حالتنا، لم أصدق ذلك، سنفترق! طردنا من منزلنا نفينا واستوطن الأغراب في منزلنا سيدمرون أحلامنا البريئة!!!

لست أدري... فهناك ما هو قابعا في كياني أخسرنا كل شيء انطوت روحي وتكورت على روح حياة مضى الوقت ولم نتحدث وهبط الليل ونحن ما نزال في سرير واحد لا نريد أن نفترق أو أن نتر ك بعضنا ودموعنا لا تفارقنا وإذا بجمانة تنقر النافذة كعادتها فتحت النافذة دخلت جمانة وتقولبت بين يدي حياة ابتسمت!!

قالت:- لا يهم إن الله معنا!!! لن ينفعنا الحزن أبداً سيجعل الله لنا مخرجا لن نفترق ستلتقي أرواحنا تعزف لحن اللقاء دوما..........

لذلك ما رأيك أن نمضي نهار غداً معاً؟؟؟

هذا ما قالته وقد كانت صائبة في رأيها فأنت لاتعرفين ان منزل عمتي يكمن في إحدى المحافظات التي تبعد عن العاصمة تقريباً مسافة مسيرتها ساعتين بالحافلة أما بيت عمي فهو قريب من بيتنا وهذا يعني أني إن أردت أن أزور حياة يجب أن أضع في الحسبان المسافة التي تفصلنا عن بعضنا كمادة وليست كروح كما أنه لا يوجد هاتف أرضي في منزل عمتي لأحدث حياة من خلاله وأطمئن عليها لذلك خرجنا في صباح اليوم التالي شعرت حينها بأن صحتها قد تحسنت سرناولا أعرف إلى أين؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

خرجنا من المنزل لم نتحدث شعرت بأصابعها تلتف حول أصابعي ابتسمت عندها ووجدتها تقول لي:- أمل خذي هذا المال وهيا اذهبي واشتر لي شيئا يذكرني بك وسنلتقي بعد ساعة في حديقة المدرسة لا تقلقي علي.. انا اليوم بصحة جيدة والحمد لله وابتسمت وأردفت: - سأفعل نفس الشيء سأشتري شيئا لك!!!

تركتني وسارت وكأنها تطير على الأرض لم أجد نفسي حينها إلا مجبرة على المغادرة حطت برأسي العديد من الأفكار ماذا سأشتري لك يا حياة؟؟؟؟؟

صرت أسير وأسير يا ترى ماذا سأشتري؟؟

أخذتني قدماي لمتجر لبيع الفضة نظرت إلى واجهة المتجر وجدت قطعة من الفضة بنفس الزخرف الذي تحبه حياة حفر بداخلها كلمة لفظ الجلالة (الله) شعرت بأني إن اشتريتها ستكون تلك أروع هدية...

ولم أتردد دخلت المتجر وابتعت القطعة هي نفسها التي أهديتك إياها يوما وعلقتها في جنبات كتاب أهديتنيه يوماً، عندما طلبت مني أن أحول الخيال إلى كلمات، أظنك تعرفينه جيداً، فلطالما سطرت في الكتاب كلماتي التي كانت ترتع بين يديك..

بقي لدي القليل من المال سرت وروحي تحاكيني سأشتري لها الورد الجوري! أجل سأذهب لمتجر بيع الأزهار وأشتري لها الورد الذي تحب الجوري الأبيض الذي لم يتفتح بعد.... لتتفتح بين يدي من يستحق!!! وعندما هممت دخول متجر بيع الورود رأيتها يا الله إنها تفكر بما أفكر تريد أن تشتري لي الورد أيضاً وعندما تضاربت عيوننا والتقت.. ابتسمنا

قالت:- لابد وأن جزء من روحي هو الذي قادك إلى هنا إنه الجزء الذي انصهر بداخلي وداخلك!!! وتقاسمناه أجنة وأطفال ثم شباب!!!

قلت:- أجل!!!

قالت:- ستدخلين قبلي وتشترين الورد الذي تريدين ثم أدخل انا هيا أدخلي!!!

ودفعتني برقة لداخل المتجر وابتعت الورد الجوري الأبيض وكتبت على البطاقة التي ثنيتها بين أطراف الورد عبارة:- ما أجمل أن تتفتح الورود بين يديك......حياة

أمل حياتي

وخرجت أخفي الورد خلف ظهري فدخلت هي وبعد برهة خرجت وابتسمت لكنها لم تخف الورد خلف ظهرها كما فعلت... في تلك اللحظة شعرت بأنها حتى أن أخفت الورد خلف ظهرها سأراه لشدة رقتها وشفافية قلبها

قالت بهدوء:- كنت أعرف أنك ستجلبين الورد الجوري الأبيض أما انا فاخترت الجوري الأحمر

سرنا حتى وصلنا حديقة المدرسة وكان الباب مغلقا لأن اليوم عطلة و لا أنسى حينها كيف قفزنا من فوق السور لنصل الحديقة ثم جلسنا تحت شجرة اللوز قدمت لي أزهارها وقدمت لها أزهاري وجدت أنها قد كتبت العبارة التالية على أزهارها:-

كم ستشتاق لك أزهاري!!!

أمل.......................أمل حياتي

يا الله لم نستطع أن ننسى عبارة والدي (أمل حياتي)

فخانتنا عيوننا أجل وبكينا!!!!!

فأسرعت وقالت:- لم أجد سوى كلام الله عز وجل ليذكرك بي أجعليه أنيسك فوحده الرحمن سيرحمنا وقدمت لي مصحفاً، لذلك كان القرأن أنيسي فكلما تذكرت حياة تلوته.. لكن دون أن أمعن النظر بمعانيه..

ثم اختلطت دموعها بابتسامتها عندما قدمت لها قطعة الفضة وقفت أمام شجرة اللوز لتخفي دموعها رفعت يدها برفق لتلمس أوراقها وبرقتها مسحت ثغور الورقة بأناملها

قالت:- ستشتاق لك الأوراق يا أمل لكن روحك ستكون هنا كما هي روحي...

كانت هذه أخر مرة تزور بها حياة المدرسة وتلمس أوراق اللوز وهكذا كانت أيضاً أخر مرة أزور مدرستي فيها برفقة حياة .

وبعد برهة من الصمت أخذتنا أقدامنا للمترل فقد غابت الشمس ولا بد من عودتنا عدنا لنجد عمتي وعمي وزوجته بانتظارنا حيث ستأخذني عمتي معها لمترلها وستذهب حياة مع عمي وزوجته ولأخبرك للحظة عن عمتي هي أرملة في الخمسينات من عمرها لها ولد وحيد يكبرني انا وحياة بحوالي أربع سنوات وهي تعيش الأن وحدها في مترلها بعد أن سافر ابنها (يزيد) لإتمام دراسته في إحدى الدول الغربية.

أما عمي فهو رجل في الأربعينات من العمر وزوجته أصغر منه بحوالي عشر سنوات لم يرزقا بالأولاد بعد لكن زوجته تحبني وحياة وتتمنى أن يرزقها الله بتوأم مثلنا.

دخلنا المترل هناك صوت جلبه! شعرت قلب (حياة) يرتجف للحظة الكل هنا حاضرون نظر عمي إلينا ثم توقف الجميع عن الكلام كأن دخولنا ألجمهم! اقتربت مني عمي وبرقة تشبه رقة والدي

وقال:- كبرتما عزيزتاي هذه عيونك يا أمل تشبه عيون والدك بصلابته وحبه للحياة

قلت:- حبه للحياة ولحياة اختي

! ابتسم وقال:- أجل! ثم أردف:- كلما اشتقت لحياة ستأتي بك عمتك لرؤيتها ولقضاء بعض الوقت معا لا تحزني!؟ ثم اقترب من حياة وقبلها وقال لها بصوت كله رجاء:- أرجوك أحضري أمتعتك يا حياة سنغادر الأن فهذا المترل لم يعد مترل أخي فلا مقام لنا هنا ثم أسرعت عمتي ضمتني لصدرها شعرت بدقات قلبها كم تمنيت لو حتى ودعتني امي حينها أو حتى ودعت حياة.

ثم قالت لي عمتي بصوتها الدافئ:- نرجستي الصغيرة هيا اجلبي أمتعتك..

عندها دخلت انا وحياة الغرفة كنت أتحاشى النظر إلى عيونها وهي أيضاً، كانت تفعل نفس الشيء، حتى ارتطمت يدي بيدها، عندها فقط التقت عيوننا تاهت في فضاءات رحبة، سافرت حتى عانقت السماء وغرقت في الدموع، وقفت أمامها وكأني طفل أضاع أمه، وهي كذلك كأنها تشعر بنفس الشعور اختزلت كل شيء للحظة لأرمي نفسي فوق ظلالها تلك المسكونة بداخلي وانا المسكونة في أحشائها تلك التي كانت تطرق قلبي بأناملها الزكية وتعطش عيوني رويداً رويداً كلما شربت من واحاتها تلك هي الجميلة بكل رونقها، عذبة بممشاها، وجبينها ذاك الندي؟!

بعد أن ضممتها وغرقت في أحضانها عندها قالت بصوت النشيج:- أمل يكفي سنلتقي ونتحدث دائماً معاً أنسيتي أرواحنا ستلتقي دوماً، عندها شقت لحمتنا (جمانة) وقد نقرت زجاج النافذة فأسرعت حياة لتفتح النافذة وتضم جمانة وقالت:- ستحتفظين بجمانة أليس كذلك؟

قلت: كلا ستبقى جمانة معك!

قالت:- ولكن

قاطعتها:- جمانة ستبقى معك يا حياة!؟ فحملت حياة بيت جمانة وخرجنا فسأرعت عمتي إلي وكذلك عمي وزوجته إلى حياة خرجنا من المترل نظرت حينها لوجه امي وكانت قد وقفت لجانب زوجها وابن زوجها وغاصت عيونها بدموع لا أعرفها وكذلك يدها غاصت في شعر حربي ابن زوجها ياالله كم تمنيت أن تفعل ذلك معي أو حتى مع حياة...

ولما هممت بدخول السيارة مع عمتي كانت حياة تهم بدخول السيارة مع عمي وزوجته في تلك اللحظة غرقنا بالدموع تذكرت كل لحظة قضيناها معاً ولست أدري كيف ركضت بسرعة نحوها مثلما ركضت بسرعة نحوي ضممتها وضمتني التحمنا من جديد يا الله كم الفراق صعب لم تكن قلوبنا تحمل ذلك الصبر الذي تعلمته منك لم أكن

أعرف فلسفتك الفريدة في أصول الفراق شعرت حينها بأني أغوص في نعيم الجنة لحظة ضممت حياة لكني سرعان ما هبطت من هذا النعيم في الجنة إلى جحيم الأرض، وهذا بعد أن نزعني زوج امي عن حياة! بل حياتي، لم أكن أعرف أنني سأحب الفراق، لأني سأتعلم فلسفتك في الفراق، ويالها من فلسفة خاصة.!!

وصرخ غاضباً:- يكفي هذه التراجيديا وزرعني في سيارة عمتي كما زرع حياة في سيارة عمي ولم أستطع أن أمنع عيوني أن تخرج أكثرمن حدود الزجاج بل لتخرج إلى حيث حياة وترقبها أما هي فأثرت أن تدفن عينيها في محجريهما..

لم أكن أدري أني بعد ما يقارب أسبوع من الأن سأفقد حياة للأبد لم أكن أعرف أن هذه الحقبة من حياتي ستكون الحقبة الأصعب في تاريخ عمري كل ما أعرفه أني شعرت بأني خفت، قلبي ينزع مني وغادرنا.. لم تكن إقامتي في بيت عمتي طويلة إلا أني شعرت بأنها امي البديلة ولم يكن في منزلها سوانا كنت أعود من مدرستي لأجدها بانتظاري نتناول غذائنا ثم أدخل لغرفتي وسرعان ما أهرع لخيالي وروحي لأستشعر اختي وحالها!

وكذلك أيضاً زوجة عمي كانت أماً رائعة لحياة فقد أغدقت عليها كل الرعاية والحب سيما أنها لم ترزق بالأولاد بعد، كانت حياة

في تلك الفترة متعبة جداً كنت أشعر بذلك لكنها كانت تحاول أن تخفي عني مرضها الذي يزداد، لابد أن أمر خروجنا من مترلنا له الأثر الأكبر في تعبها حتى زوجة عمي لاحظت ذلك فكانت دائماً تعود من عملها تسرع لحياة لتطمئن على صحتها وكانت لاتنام إلا عندما تقبل جبينها وتطمئن أنها تناولت الدواء.

وبعد عدة أيام، استيقظت عند الفجر وبعد الصلاة يال المفاجأة جمانة إنها الحمامة جمانة تنقر النافذة أسرعت للنافذة أفتحها ما الذي جاء بك إلى هنا.................. حياة؟؟؟!!! كيف حال حياة فبقيت صامتة بلا هديل!!!! لبست ملابسي بسرعة خرجت من المترل دون أن أخبر عمي وصلت إلى المجمع ورميت بجسدي في أول حافلة متجهة إلى العاصمة كنت أضم جمانة بين ذراعي لكن أخذتني رعشة في قلبي وكأنه حلم رأيته لحظتها لم أكن نائمة!!! رأيت حياة تقف بين يدي الله تصلي الفجر كأن وجهها يشع نوراً لكنه نور بلون أصفر يشبه لون السماء ساعة الغروب!!! يا إلهي إنها متعبة سقطت.....سقطت على الأرض ساجدة سمعت صوت أنينها صدقيني إنه يحف أذني حتى الأن كانت تدعو الله:- ربي أجعل وجه أمل أخر وجه أراه!!!! كانت تدعو الله بصوت خافت ثم استيقظت يا إلهي أذلك حلم أم خيال وهواجس خياة!!!!!

مرت الساعتين وانا بالحافلة وكأنها سنتين تخلق لي هواجس عالمٍ ملأ بالأحزان خلجاتي، تحلق بي وبجسدي إلى سماء ثم ترميني لأسقط و أرتطم بالقدر!!! أتحطم!!! وصلت العاصمة أسرعت بالركض أسابق الريح لمنزل عمي طرقت الباب فتح عمي الباب

عمي:- أمل ما الذي جاء بك إنها الثامنة والنصف صباحا!!!!؟؟؟

أسرعت لحياة لغرفة حياة وجدتها راقدة في وضع السجود نظرت إلى جسدها اقتربت منها وضعت يدي على ظهرها شعرت وكأنها قالب من الثلج يا الله كيف تخط أناملي تلك اللحظة، لا يمكن لقلمي أن يحمل عبر خطوطه التي يحفرها على صفحة الورق ما شعرت به، مال جسدها نحوي رفعت رقعة وجهها إلى وجهي إنها لا تزال حية!!! نظرت إلي وقالت:- الحمد لله فقد استجاب الله دعائي أخر وجه أراه وجهك.. عزيزتي أمل صادقي الله أنه ملجأك و....و ابتسمت وسالت من عيونها دمعات حرقت أناملي..

أما انا فدموعي سالت حتى سقطت على وجهها الملائكي ثم أغمضت عينيها. أجل قبض الله روحها لم أصدق ضممتها إلى صدري تمنيت أن أدفنها فيه.. صرخت في وجه عمي وزوجته عندما اقترب من جسد حياة: لا تقتربوا منها قتلتموها دعونا نحيا بلا ألم يكفي ألما حياة لن

تموت إنها تنام فقط أجل لقد اشتاقت لتنام بين أحضاني لا تلمسوها فهي أرق من أن تلمسّ!!!

ادفنوني بجوارها إن أردتم دفنها وجهشت ببكاء هستيري..

لم يكن إيماني قوياً حينها لأعرف أن ذلك من قدر الله كانت الصدمة شديدة كنت أظن بأني أصبحت وحدي لم أكن بدرجة إيمان تشعرني بأن الله معي دوماً!!

شعرت بأني في كابوس لا ينتهي ضممت حياة لصدري كانت هذه أول وأخر مرة أضمها فيها وهي ميتة!!! لم أشعر بذلك الدفء بل شعرت ببرود الموت وعندما اقتربت يدي من قلبها لم أشعر بوقع نبضاتها التي تعني الحياة بل شعرت بنشيج الموت وصمته نظرت إلى عنقها رأيت قطعة الفضة تلك التي قدمتها لها التي تحمل لفظ الجلالة ياااااااااااااااااااااااااااااااه حياة علقتها في عنقك لتتذكريني فتتذكري الله تعالى أم ماذا؟؟؟؟؟!!!

فقدت الوعي لم أستيقظ إلا بعد عدة ساعات وانا بالمستشفى لكن لم أفتح عيوني فقد وقف على أجفاني سؤال، تذكرت حياة يا ترى هل كل ما حدث كابوس كنت أعيشه أم هي الحقيقة!!!؟؟ ثم سمعت صوت عمتي تحدث عمي وتقول له أنها لم تلحظني عندما خرجت من المنزل صباحاً والكل كان يتحدث بنبرة الإستغراب كيف شعرت بأن

حياة متعبة و تحتضر بينما عمي وزوجته معها في نفس البيت ولم يلحظوا ذلك!

ثم سمعت صوت عمي يخبر عمتي أن سبب وفاة حياة هو هبوط حاد في ضغط الدم الناتج عن الجرعات الزائدة من الدواء حيث أن امي اشترت لحياة دواء بديل عن الدواء الذي كانت تشتريه لها عادة وهذا الدواء البديل أقوى من الدواء الأصلي ولم يحتمل قلب حياة هذا الدواء وقوته فتوفيت!!! أيقنت حينها أن ما حدث ليس كابوساً إنما حياة ماتت حقاً! فحط في بالي سؤال أحمق:- من المسؤول عن قتلنا!؟؟؟ يا ترى هل من جواب؟؟؟ حقا سؤال أحمق وغبي!! فتحت عيوني أقبلت عمتي نحوي بت أنظر حولي لماذا أظلمت الدنيا هكذا؟؟؟ لماذا مات كل شيء؟؟؟ لم يعد هناك شيء ملون أكل شيء منزوع الألوان؟؟؟ وأثرت الصمت؟؟؟!!! جاءت أمي وزوجها دخلا تشاجرت مع عمي

عمي:- بسبب إهمالك توفيت حياة! كيف تجرئين على المجيء هنا!؟؟؟

أمي:- انا لم أقصر الدواء كان مفقوداً وكان لا بد وأن أجلب لها البديل أنتم من قصر!؟

زوج أمي:- أهذا جزاء الإحسان أن هذا قضاء الله قد توفيت في بيتك وليس في بيتنا!! ثم جلست عمتي بقربي وضمتني وقالت لا تحزني هذا قضاء الله حياة ستبقى في قلوبنا

ثم قال عمي:-أمل ستغادر المستشفى ستعيشين في مترلي

عمتي:- كلا يا أخي ستبقى أمل عندي!

عندها تدخلت أمي وقالت:- أمل بحاجة للراحة سأخذها للمترل انا أمها ومن حقي حضانتها

عمي:- لا تفرحي كثيراً قد تأخذينها الأن لكن أعدك أن أرفع قضية أضمها لحضانتي هي وأملاك اخي فأنت أم مهملة!!؟؟ ثم خرج هو وزوجته وعمتي وصحبتني أمي للمترل مع زوجها بقيت صامتة ولم أتحدث بأي شيء حالة من الوجوم حلت بي لم أعد أتحدث دخلت غرفتي وتركتني امي وحدي كانت مظلمة في كل ركن من أركالها أشم رائحة أنفاس حياة كانت أنفاسها تحاصرني بدأت دموعي تهطل من عيوني بت أتأمل كل شيء هذا سريرها هذه أقلامها وهذه أزهارها الذابلة هذه كتبها إلهي هذه حاجاتها على السرير..

وسادتها، اقتربت يدي من هذه الحاجات: ملابسها.. مصحفها، الذي كان يصاحبها والقلادة التي تحمل قطعة الفضة التي أهديتها إياها ضممتها بأناملي وألقيت بجسدي على سرير حياة واستسلمت لبكائي

وعندما هجم عليا الصباح خرجت من المنزل أنفاسي تعتصرني جلبت الورد الذي كانت تحب..

لكني سرعان ما شعرت بالغربة عدت للمنزل، وقفت عند الباب كنت أعرف أنها ليست بالداخل ومع ذلك، نشرت ما كنت أحمل من أوراق الأزهار والورود على عتبة الباب كنت أكذب نفسي وأقول:- ستخرج وتفتح الباب ستعرف أني من نثر الورد هاهنا لأقول لها:- لو أستطعت أن أنثر لا بل أفرش الأرض ورداً لما قصرت كنت أحتال على نفسي وأقول:- ستخرج من الباب لتلقي الورود عليها التحية ولنقل لها:- لماذا أنت أجمل مني؟؟؟ ولماذا أنت أرق مني؟؟ ولماذا هذا الندى في عينيك!!؟؟؟ كنت أظن أنها لا تعرف الإدماع كنت أظن أنها الحياة بلا أوجاع وأنها الحب بلا ضياع لكنها غادرت لتترك لي في لحظة كل الأوجاع والضياع فكنت أقوى بألمي!! بت أتأمل أوراق الورود وهي متناثرة أرقبها وأسألها فرأيتني أحتال عليها وأقول لاتذبلي ستخرج ها هي الأن هي أقدامك تمشي على الأرض، لكن.. هبت الريح فطارت الأوراق كأنها وجدت عذراً ومهرباً من سؤالي؟؟؟ صرت أمشي في طريقي صرت أحدث نفسي وأقول لها:- ما هي الحياة من دون حياة؟؟؟ بل ما هو الأمل من دون حياة؟؟؟ كنت أعرف أنها رحلت للأبد لكن لا أعرف لماذا شعرت بأني سألتقيها بلحظة يجمعنا فيها القدر.. علها تطل علي من أبيات الشعر التي أكتبها سأطاردها في كل

بيت من الشعر سأطرق أبواب الدخان للبحث عنها وأسأل:- أين عينيك؟؟؟ فأجدها متخفية خلف الدموع فسأسأل:- لماذا تبك؟؟؟ ولماذا أبك؟؟؟ فأجدني لا أدري!!!

وجدت نفسي كالذي استيقظ باكراً أم أني أحسب نفسي أنام بدأت بالمشي بعيداً عن المترل وكأني عصفور خرج من السجن لم أشعر بالوحشة كان الجو ماطراً وكأن السماء تبك حياة صرت أمشي وكأني أستقل الماء وكأنه طريق لخلاصي كنت سعيدة جداً شعرت بأنها معي الشارع فارغ من الناس لا أحد سرت في منتصف الشارع فتحت ذراعي مستقبلة دموع السماء خلت أن روحها معي.. حولي لا أعرف ما الذي دفعني للبكاء، رأيت الياسمين على الأشجار يبك ويهتز، و رأيت شجرة الليمون باسطة كفها، وثمارها الحامضة ترسم ابتسامات مرة، لا أعرف حينها لماذا قطفت الورد ونثرتها على صفحة الماء الراكد صارت تمشي وكأنها الطفولة وتذكرت عندما فعلت نفس الشيء في بداية الربيع الماضي صرت أدور وأدور ألتف حول نفسي أنظر إلى السماء وأعاتبها:- لماذا تبك؟؟ ثم توقف الزمان وشعرت بأن عقارب الساعة تطاردني والكلمات عجزت عن وصف شعوري لكن قدماي أخذتني إلى حيث لا أدري أضللت الطريق! كلا أمشي في الطريق الصحيح لكني أراه لأول مرة هكذا، وصلت إلى شجرة اللوز ها هي أزهارها الخجلة ترتعد لا أعرف بماذا شعرت حينها لكن... كل ما

أذكره أني صرت أنظر إلى أوراق أزهار اللوز رأيتها تنحني على بعضها بعضاً، وكأنها تتعانق صدقيني لم أكن أشعر بالبرد، هبت رياح قوية وصرت أغبط أزهار اللوز ووجدتني أعانق دموعي، وأخذتني قدماي هاربة من ذلك المكان شعرت بأنها تناديني ومن شدة لهفتي عدت إلى أزهار اللوز عدت أليها ورأيت وجهي ووجهها في كل حبة من حبات المطر على الأزهار طاردت وجهها في مرآة عيوني ثم سألت نفسي:- لماذا عدت ثانية؟؟؟

لأذبح كل ثانية

بئست الحياة فانية!

ثم انحنى رأسي وأخذتني قدماي للمنزل خيل إلي أني لست من البشر بل إن البشر ليسوا مثلي!! وصرت أذوب في ذكرى جمعتنا معاً، لم ولن استطع أن أنساها يوماً!! فهي حياتي!!!!

ثم عدت للمنزل لم أستطع البقاء في المدرسة أكثر عدت لأزج بنفسي داخل غرفتي،غرفتي هذه أصبحت عالمي المظلم أزج بنفسي بين جدرانها الأربعة قابعة خلف القضبان محصورة بالذكرى مستسلمة للخيال أجل الخيال!

أم أني فقدت عقلي والسيطرة على نفسي صرت للحظات أرى حياة أمامي بابتسامتها أحدثها وصرت أتخيل أنها تحدثني أجل تحدثني! وكأنها لم تمت بعد!؟ بل صرت أشك أنها ماتت؟!

تدخل أمي غرفتي تارة تجدني أحدث نفسي وتارة أخرى غارقة في الصمت والدموع وربما بالضحك أحيانا؟؟؟!

فتسألني أمي:- أمل مابك أتحدثين نفسك؟؟

أقول:- كلا أتحدث لحياة!!!

أمي:- عزيزتي حياة ماتت هل فقدت عقلك؟؟؟

فأجدني أضحك وأبكي!!

فتخرج أمي وقد استعوضت الله في عقلي

صدقيني كنت أراها وأرى والدي أراه قابعا في سجن يشبه غرفتي مقيداً بالسلاسل كعملاق هزمته الخيبات فأسأله

انا:- أبي أما زلت على قيد الحياة؟؟؟؟؟؟؟؟

ابي:- أجل سأعود يا أمل سأعود!!!!

انا:- لماذا سافرت؟؟

ابي:- ألا تعرفين!!!الأحارب الإحتلال!!!

انا:- يبدو أنك ما كنت تعرف أن الإحتلال قد جاء إلينا وأنك ما ذهبت إلا لتحارب وهماً يا ابي!!!

ابي:- أيّ احتلال تقصدين!!! العدو من قيدني!! ولست أحارب وهما!

انا:- وفراقك يا ابي قيدني وكسر ظهري وقتل حياة عمري وسرق مني امي!!!

ابي:- ماذا تقولين هل وصل العدو إلى البلاد!!!

أنا:- إنه هنا منذ زمن لكنك لم تره إنه يعيش معنا وبنا يجري مجرى الدم لكنك لم تبصره وذهبت لتحارب طواحين الهواء يا فارساً عد إلينا... عد إلينا!!!!!!

ثم يختفي كعادته فيدخل حربي الغرفة ويضحك القهقهة ويقول:- خالتي فقدت أمل عقلها... مبارك!!!

وبقيت على حالتي هذه فترة طويلة حتى صرت أقضي معظم وقتي غارقة في خيالي حتى في المدرسة اخترت لنفسي مقعداً في أخر الصف إلى الجهة اليمين وكنت أصر على الجلوس لوحدي كنت أحسب أن حياة تجلس بجانبي كما كنا دائما وفي وقت الإستراحة أبقى وحدي في الصف أو ربما أذهب لحديقة المدرسة إن حالفني الحظ وهربت من طالبات النظام.

كل البنات كانت تحاول أن تتقرب مني إلا أني كنت مثل الصندوق المغلق أغلقته بمفتاح يعلوه الصدأ وابتلعته، فتلك التي تتهمني بأني فتاة معقدة وتلك التي تقول بأني بحاجة إلى طبيب نفسي وتلك التي تحاول استدراجي لمشكلة ثم مشاجرة ولتنال مني دون أي سبب فقط حتى أصبح من وجهة نظرهم فتاة قوية.

وفي أثناء غرقي في حالتي تلك تفاجأت مرة بأمي تدخل الغرفة، تسأل عن حالي..

فأثرت الصمت

أمي:- كيف هي دراستك؟؟؟ يجب أن تهتمي بالدراسة جيداً أنت الأن في سنة مهمة، الثانوية العامة بحاجة للتحضير الجيد ستحرزين معدلاً عالياً... ستدخلين الجامعة... جامعة الطب أو التمريض لتهتمي بعيادة والدك وتتزوجين حربي!!!!!

انا:- ماذا؟؟ أدرس الطب أو التمريض ثم أتزوج حربي!!!

امي:- أجل هكذا لن يستطيع عمك أن يضمك لحضانته وأن يأخذ إرث والدك!!!؟

انا:- أهذا ما يهمك؟؟؟ المال انا لا أحب التمريض ولا الطب سأصبح شاعرة كما وعدت ابي

امي:- ابي... ابي.... أن أباك قد مات كما حياة كوني واقعية يا حمقاء!!؟

انا:- لا سيعود.. سيعود ولن أتزوج حربي هذا ولن أدرس الطب ولا التمريض!!!

أمي:- هذه أوامر وستنفذينها انا أمك والمسؤولة عنك!!!! أفهمتي وصفعتني وخرجت!

يبدو أن وجهي اعتاد الصفعات لذلك لم أعد أتألم وفكرت كيف سأخرج من هذا المأزق كيف يمكنني أن أتدبر أمري، لم أجد سوى حل واحد وهو ألا أدرس ويكون الرسوب حليفي وعندها لن أدخل الطب ولا التمريض فلا يعود هناك حاجة لأن يتزوجني حربي لأنه لا يريد أن يتزوجني إلا طمعاً في العيادة وإرث والدي!!!

وهذا ماحدث لم أعد أهتم بدراستي صرت أعيش في عالم أشكله بطريقتي أسافر فيه من دون جواز سفر أو تأشيرة لست أيضاً بحاجة إلى أن أغمض عيوني..

كل معلماتي تفاجأن بي هذه ليست أمل! الفتاة المجتهدة والطموحة والشقية التي كانت تحاورهم وتناقشهم فقد تحولت لفتاة أخرى فتاة تسكن الخيال وتطاردني شياطين الوهم وتحاربني في الظلام حتى صرت مرتعاً لهم ولألعابهم وحتى لحروبهم ومعاهداتهم التي لا تؤذي

إلا نفسي وتختزلني كلما حاولت أن أكون أكثر واقعية كنت أشعر بالمرارة من واقعي فأهرب منه لخيالي حتى صار جزءاً مني!

ولأ نخبرك عن أول مرة رأيتك فيها في مدرستنا كنت حينها في حديقة المدرسة أتجه نحو شجرة اللوز كعادتي تفاجأت بوجودك في الحديقة لكنك لم تلحظ وجودي فقد كنت في الفناء قرب الدرج شاهدتك تلمسين أغصان شجرة اللوز عندها قربت ورقة منها لشفاك الندية وقبلتها كنت أراك لا أعرف لماذا خيل إلي أن حياة هي التي كانت تفعل ذلك وليس أنت أم أن روحي تخيلت! تمايلت من عيوني دمعة راقصة بين أجفاني تمنيت لوهلة أن أسرع إليك لكني أدركت أنك لست حياة؟؟؟

شعرت حينها أني أسمع وقع نبضك واستدار وجهك نحوي لأراك بوضوح فإذا بي ألحظ نقابك الأبيض! لا أعرف لماذا اشتعل عقلي حينها بسؤال غبي وأحمق! أعذريني للسؤال فقلبي فيه حاجة لجوابك: هل حقا تلبسين النقاب من أجل الله؟؟؟ أم هو عباءة تخفين بداخلها إنسانة أخرى! سامحيني فكل من قابلتهم كانوا يتخذون الدين والإسلام عباءة! عباءة تخفي وحوش تحت ثناياها ويجعلون من المسبحة طوقاً يلتف حول عنقي لكنك سرعان ما قطعتي سؤالي ذاك بانسحابك إلى مكان أخر وأثرت انا الرحيل.

وعند عودتي للمترل ذلك اليوم، ويا ليتني لم أعد عرفت أن زوج أمي ينوي عقد قراني على ابنه وأنه يتعجل ذلك وبالطبع لم تشفع لي دموعي، إلا بتأجيل تلك الخطوة بعض الوقت...

يتعذرون لقتلي بحجج واهية ذلك حتى تخيب تهديدات عمي وحتى لا يحصل على إرث والدي وتبادلت في ذهني أفكار عدة حتى أمنع عقد القران فلن أتزوج من شخص لا يعرف الدين إلا عباءة ومن كان سببا لطردنا من مترلنا و لم أجد سوى حل واحد!!!

حل مجنون إلا أن عقلي لم يوصلني إلا له وهو أن أتعرف بشاب وأوقع نفسي بعلاقة محرمة معه وعندها لن يتزوجني حربي وربما قتلني و بالموت فقط سأشعر بالراحة!!! لم يكن إيماني بالله قوياً لم أكن أستشعر أن الله يراقبني كنت أعبده مجرد عبادة، عبادة جوارح بلا قلب ولأكمل لك ما حدث والذي سيثبت لك كم يحبني الله عزوجل لأنه أنقذني من براثن نفسي..

بدأت بالتقرب من فتاة في صفنا كانت هذه الفتاة معروفة بعلاقاتها الكثيرة مع العديد من الشباب حتى قيل أنها تحب ثلاثة في آن واحد..لا تستغربي فعالم الفتيات فيه كل شيء وليس خيالا بل حقيقة!!؟؟ وفي لحظة تقربت فيها منها وصارحتها

انا:- أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟؟؟

قالت:- بالتأكيد!

انا:- أريد أن تعرفيني بشاب!؟

قالت:- ماذا؟؟؟ أنت أمل تريدين التعرف على شاب!!

انا:- أجل ولماذا؟؟؟ ألست فتاة؟؟!!

قالت:- أحقا أنت أمل!أنسيتي نصائحك لي!

انا:- أرجوك أنسي كل نصائحي وعرفيني إلى شاب!

قالت:- ما هي غايتك لابد و أن هناك سبباً يدفعك لذلك!!!

عندها لم أجد مناصاً من إخبارها بشطر من الحقيقة وسأحتفظ بالمتن لنفسي فأخبرتها أن أهلي يرغبون بتزويجي من أحدهم وانا لا أريد ذلك وأن علاقتي تلك ستمنع زواجي وتفاجأت بسؤال غريب هزني! فقالت:- أي نوع من الشبان تفضلين؟

أحقا هناك أنواع من الشباب وهل الفتاة التي تريد التعرف على شاب يجب أن تختار نوعه هل هو قطعة تباع وتشترى فاشتعل رأسي وقلت بكل قوة شاب ملتحي

قالت:- ملتحي!!!!!

انا:- أجل

قالت:- لماذا ملتحي بالذات؟؟؟؟

انا:- لأنتقم من كل شخص يلبس الدين قناع!!!

ثم قطعت حديثنا فتاة طيبة تدعى (لوجين) واقتربت مني وهمست في أذني بكلمة وقالت:- أريد أن أحدثك لوحدنا! هل يمكن ذلك؟

وسحبتني من يدي كالطفل المدلل الذي تسحبه أمه من رفاق السوء وقالت:- أمل! ما الذي يدفعك لمصادقة هذه الفتاة وأنت تعرفين من هي!!!

قلت:- ما دخلك أنت؟؟؟

لوجين:- أنت فتاة مؤدبة خسارة أن تضيعي نفسك!

انا:- من سمح لك بالتدخل في شؤوني الخاصة!؟

لوجين:- لا يجب أن يسمح لي أحد بالتدخل عندما أرى صديقتي على طرف الهاوية يجب أن أنقذها من دون أذن وأنصحها؟!

انا:- لاتخافي علي سأكون بخير!؟

وتركتها

صدقيني شعرت بالسعادة لأني عرفت حينها أن هناك أشخاص في الدنيا ماتزال تحرص على فعل الخير، لكن لوجين لا تعرف شيء وكان هذا الموقف لحظة عابرة في حياتي التي كانت تخلو من الصداقات،

ولماذا الكذب فقد كنت أصادق أحزاني وهمي، تلك التي تخبرك عني قبل أن أخبرك عنها..

وفي اليوم التالي اقتربت مني تلك الفتاة وأخبرتني أن هناك شاب ملتحي يرغب بالتعرف علي وأنه ينتظرني في حديقة عامة بعد الدوام المدرسي وأنها ستصحبني معها بعد الدوام حتى تعرفنا ببعضنا وهذا ماحدث انتهى الدوام فخرجت انا وهي من المدرسة وصلنا الحديقة وإذا بشاب ملتحي لم ار من وجهه إلا اللحية أو ربما هذا ما تسمرت عيوني عليه من وجهه ثم قالت:- أمل هذا...

و هذه أمل أتمنى أن تقضيا وقتاً ممتعاً معاً، صدقيني لم أسمع اسمه فكل ما يهمني هو أنه ملتحي! ثم غادرت...

في تلك اللحظة شعرت بيديه تلمس يدي وكأنها أفعى تكاد أن تنهشني وتحول جسدي لقالب ثلج، ثم نشط عقلي حينها وتذكرت والدي! لو كان هنا هل سيرضيه ما أفعل! هل أخرج من مشكلتي تلك بعار أكبر... شعرت بأن دموعي تنهمر على وجهي وكأن هناك صاعقة كهربائية مستني وركضت....

هربت من المكان شعرت بأني ذائبة في بحر الضياع ربما كانت لمسته لي بمثابة صفعة على وجهي لأستيقظ... هل تعرفين بماذا كنت أشعر... صدقيني لن تفي كلماتي للوصف، لكأني بضاعة رخيصة

عرضت للبيع ولكن لم يجدوا لها مشتري.. لو تعرفين قيودي.. ولو تعرفين جروحي.. تلك التي ما تفتأ تنزف دماء لا غير، أو ربما شئ يشبه الدماء...

انا المكبلة بسلاسل تراكم عليها الصدأ، انا المسجونة في قبر لا أعرف طعم الشمس.. انا المنسية في الدرك الأسفل، والقابعة في بحر الظلمات، هل تعرفينه! انا الصارخة بصمت، حتى أنه ليخيل إلي بصمتي أني أفصح من نطق الآاااه...

عدت للمدرسة لألقي بجسدي بين أحضان أشجاري وبدأت بالبكاء والنحيب أحقا فعلت ذلك! هل أرضي الهوان على نفسي! هل أريد أن أنتقم من زوج امي وابنه أم أنتقم من نفسي؟؟؟؟ هم لم يخسروا!؟ انا التي ستخسر!؟

سأبيع نفسي بثمن رخيص إن فعلت ذلك، ثم شعرت بيد دافئة على ظهري فرفعت رأسي لأنظر من فاذا بها (حياة) اختي، صدقيني كنت ألمسها كما الحقيقة، فالخيال أصبح جزء مني، أو ربما تحولت انا لخيال،ثم خيل إلي أن ثغرها انطبق بعد انفراجه على خدي ساكبة قبلة أفلتت منها، فأمسكتها أحزاني..

قالت:- كنت أعرف أنك لن تفعلي ذلك!!!

فدفنت رأسي بين أحضانها واستسلمت للبكاء إلى أن جاءت تلك الفتاة..

قالت:- أمل أنت فتاة نقية لا تلوثي نفسك، ففطرتك التي جبلت عليها الصفاء فلا تزرعي نفسك في المعصية والضياع.

ثم تابعت: شعرت بأني سلعة رخيصة، لم أكن أعرف أنك بلورة صافية فحافظي على نفسك، لأول مرة أفكر فيها أن أنظف نفسي، من الأن سأقطع كل علاقاتي تلك عل الله يغفر لي وأصبح مثلك ثم قبلتني وانصرفت و لم نستمع منذ ذلك اليوم عنها إلا الكلام الطيب.

ولكني بعد كل ذلك أثرت أيضا أن أجلس وحدي بالصف حتى لا أزعج أحد بخيالي الذي لم أعد أسيطر عليه فقد أصبح جزء مني، وأصبحت جزء منه..

مضى الفصل الدراسي الأول وقدمنا امتحاناتنا وبالطبع لم أدرس وكانت النتيجة: الرسوب حطمت الرقم القياسي في عدد الإكمالات التي حصلت عليها فقد رسبت بثلاث مواد كلها علمية أما بقيت المواد الأدبية فقد نجحت بها وبتفوق!

تفاجأت امي و الجميع بنتيجتي تلك وتعلل ذلك بأن وفاة حياة أثرت في دراستي وكانوا على أمل أن أقدم امتحانات الفصل الثاني

بشكل أفضل لكن الرياح تهب بما لا تشتهي السفن، بل تهب بأمر الله وإرادته التي هي أقوى من إرادات البشر!

بدء الفصل الدراسي الثاني وكنت أنت من المعلمات التي ستدرسيني فيه وأذكر جيداً أول حصة صفية جمعتنا معا دخلت غرفة الصف شعرت بأن وقع أقدامك منتظم يكاد يعزف لحناً خاصاً بدأت بحديث ذي شجون ثم تحدثت عن منهاجنا الدراسي ولا أنسى كيف سافرتي بنفسي سارحة في جمال حسك وروعة إحساسك عندما تلوت أيات من سورة(هود) كانت مقررة علينا في الكتاب.

لم أستطع أن أمنع قلبي من أن يهتز من روعة كلام الله لأول مرة أشعر بأن كلمات القرأن تخاطبني انا، تخاطب عقلي وتمسح الحزن عن قلبي وتناجي روحي لا أعرف إن كنت لاحظت ذلك أم لا.. لكني شعرت حينها بروحانية من لا روحانية فيه، وبلهفة كأن لها عمراً مديداً من الشوق في القلب، لا ظمأ ليلة واحدة...

كنت أسعد عندما كنت تناديني بسمي، طريقتك تشعرني دوماً بأني أنبض بالأمل إلا أني كنت حالما تخرجين من صفنا أعود جسداً يصارع الفرسان الثلاث:- الموت والوهم والخيال! وماذا يفعل جسدي الضعيف تحت وقع سيوفهم وأساطيلهم! كيف أملس منهم؟ فأنا الأجزاء التي لا يجمعني كل..

حتى صرت أرى الكوابيس والأحلام التي يراها المرء الطبيعي في نومه! أراها في استيقاظي وفي وضح النهار وفي لحظات أنسى اسمي!؟

وأستيقظ لأجد نفسي أبكي بصمت ولم يلحظ أحد ذلك، إلا نفسي، فصرت أشعر أني فقدت عقلي وأني أحيا بعالم أخر لا يمت للواقع بصلة قرابة، وبعد عدة محاولات فاشلة مني لأعود كما كنت نصحتني (حياة) أن أخبرك بالأمر علي أجد بين طيات قلبك الدافئ ذاك، شفاء لعقلي المجنون! فقررت أن أمنح نفسي فرصة لأثق بك أكثر ولأتقرب منك أكثر وأكثر عل ذلك يعرفني بك ويعرفك بي أكثر ويسهل حل مشكلتي!؟

ولا أنسى تلك اللحظة التي كانت البداية لحديثنا المطول كنت حينها في صفنا وكنت منهمكة في شرح الدرس وأخذت خطواتك تقترب ووجدتك تقتربين مني ووجدت جسدك حط على مقعدي وجلستي بجانبي كفراشة حطت على وردة! رأيتك حينها كما الحلم وسافرت عيوني سارحة في صفحة وجهك الذي ما برح يرقب وجهي وكأني شعرت بالأمان للحظة لم أكن أصدق أن هناك من يجلس بقربي يشعرني بالأمان الأن. هل انا أتخيل؟! عندها صدقيني أيقنت أني بين رحى تطحن وجودي وتنشرني في وجه الحياة، فقد سكت قلبي عن البكاء، وبقيت روحي تبكي...أتراك سمعتي صوتي ونحيبي.. أحقاً أنت بقربي.

وإذا بي أرفع كفي ليرتطم بكفك لم أك أقصد إلا أن أتحقق أنك حقاً بقربي! حينها أيقنت بأنها الحقيقة لكني أغلقت عيوني في حالة تأهب لصفعة وعقاب منك الكنك لم تفعلي لم تعاقبيني كما يفعل الجميع! فاعتذرت منك لكنك ابتسمت وسارعت بالإنتقال من جانبي إلى سائر أرجاء الحقل أقصد الصف !!

وعندما دق الجرس ليعلن نهاية الحصة أسرعت إليك لا أعرف ما الذي دفعني لذلك ناديتك بأعلى صوتي وكأني غريق ينادي منقذه! سمعتني سلمت عليَّ سألتك سؤال غريب

قلت:- هل هناك أمل!؟

ابتسمت وقلت:- أجل دوما هناك أمل بالله يا أمل!!!

-: أمل بالله!!!

-: أجل!

-: حتى عندما نتألم هناك أمل بالله!

-: بل في جوف الألم ينبض الأمل بالله

-: لكن الألم ضعف!!!

-: ومتى كان الألم ضعفاً! انما هو قمة الإحساس بالله

-: لكن عندما نتألم نبك أو ليس البكاء ضعفاً!

-: كلا إنما هي قمة القوة! لأنا عندما نتألم نشعر بأنا بشراً لأنا نبك! فنشعر بضعفنا أمام قدرة الله وهذه قمة القوة!؟

صعقت حينها من إجابتك شعرت حقاً أن بين ثناياك خلاصي وأني لا شيء! ثم تاهت كلماتي مني كم كنت أتمنى حينها أن أقذف بجسدي المتهالك هذا بين أحضانك عله ينمو؟؟؟!!!

فأسرعت وقلت:- هناك ما أتمنى أن أحدثك به!؟

قلت:- وانا مستعدة لسماعك متى شئت!

-: أحقا ستسمعيني!

-: أجل ولما لا!

-: ألن تملي مني!؟

-: ولماذا أشعر بالملل منك؟؟؟

-: أدعو الله أن يجمع بيننا!

وتركتني وغادرت لكن وقع كلماتك يهز أذني ويراقص غشاء الطبلة فكم شعرت حينها بالسعادة فقط لأني وجدت من يملك قلباً صافياً وعقلاً راجحاً يسمعني!؟ سعادة من وجد كلمات روحانية إلهية يعيش قلبه فيها، يختزلها كقطعة شفافة، اختارت ألا تكون إلا كمايجب أن تكون، كما هي، وبدأت بالتخطيط للقائك!

كنت أبحث عنك في كل مكان وأتحين الفرصة المناسبة لأحدثك ولم أجد الوقت هذا إلابعد نهاية الدوام المدرسي وجدتك أخيراً في حديقة المدرسة تجلسين تحت ظل شجرة الزيتونِ برفقة صديقتك، رأيتكما منسجمتان بالحديث لم أرغب في إفساد خلوتكما لأني لم أعتد ذلك! انتظرت وانتظرت هناك أيضاً من ينتظر مثلي ويريد مقابلتك ولو دقيقة!

هل تعرفين، بت أحب الإنتظار لأنه يذكرني بك، بل أعشقه، لأني ما قابلتك إلا بعد طول انتظار، لكن صدقيني، لقد ملَّ الإنتظار مني، فأنا القابعة في غياهب الظلمة لا شغل لي الإ الإنتظار، لكن انتظار ماذا! لا أدري؟ ولماذا! لا أدري؟ وإلى متى! أيضا لا أدري..! كلنا ينتظر، وانا ينتظر مني بعضي وكلي.. عظمي ولحمي..حزني وهمي.. حضوري وعدمي... أشباه إنسان أو لعلي بقايا أشباح، تعشق الإنتظار..

ثم اقبلت فتاة لا أعرفها و أخذت تحدث رفيقتك ثم ذهبتا وبقيت وحدك للحظة وعندها هممت بالمجيء إليك عادتا وجلست بقربك وتجمعت الفتيات حولكن من كل حدب! شعرت حينها بخيبة الأمل إن حدثتك أمامهن سيتهمنني بالجنون! وماذا لو تناقلت البنات ذلك! لكني نظرت إلى السماء ورجوت ربي وتوكلت عليه

تشجعت قلت لنفسي يجب أن تذهبي وتخبريها! حتى لو كان ذلك أمام الجميع!

تقدمت بخطوات راعشة..... وبنظرات منهزمة.... أقدم خطوة وأرجع عشرة! لكني رحلت أخيراً ورأيتيني

قلت:- السلام عليكن!

رد الجميع عليا السلام

ثم وجهت حديثي لك وقلت:- من فضلك! هل لي أن أسألك سؤال؟

قلت:- تفضلي!

فوجهت لي بعض الفتيات كلمات جارحة

وقلن:- ألا يكفيك سؤالها في الحصة!

سارعت وقلت موجهة كلامي لك:- إذا لم ترغبن بسماعي فأنا على استعداد تام لمغادرة المكان!

ابتسمت لحظتها وقلت:- انا أسمعك فأسكت كل الألسن!؟

نظرت إليك ساعتها وقلت:- أنا أرى بعض الأشياء علها أحلام لكن في اليقظة وقد عرفت بأنك تملكين القدرة بفضل الله على تفسيرها هل يمكنك مساعدتي؟؟؟؟

نظرت إلي نظرة تفي بالإيجاب والإستغراب معاً!

قلت متابعة:- هي أحيانا كالأحلام وأحياناً أخرى كوابيس أراها في كل لحظة في الإستيقاظ إنها تزعجني..

رماني جميع من حضر بنظرات تكاد تلتهمني!

سارعت وقلت لي:- هل لي أن أخذك لنتحدث لوحدنا قليلاً!

فرحت حينها لأن هذا ما كنت أطمح به!فرحت وما كنت أظن أن الفرح سيعرف طريقه بأركاني..

سألتيني:- ماذا ترين؟؟؟

قلت:- الكثير

-: اسردي لي شيء من هذا الكثير!؟

-: أرى نفسي فوق سرير أبيض مقتولة! والشخص الذي قتلني لم يركع لله يوماً وأرى جسدي ينزف دماً البعض يحاول أن يلفني بالكفن والبعض الأخر لا يريد ذلك! وهناك من يبحث عن قاتلي رغم أنه ما يزال يحمل دمي بين يديه!

ابتسمت وقلت:- كيف عبادتك!؟

شعرت حينها بالرعب بدأ شريط حياتي يمر بين يدي وأين عبادتي مني! أجل أصلي اقرأ القرآن أحب أن أصوم ولكن هل هذا يكفي فشعرت بحيائي وتقصيري وهمت بالإجابة!

-: هل ترتكبين شيء من المعاصي؟

-: لا أدري.. صدقيني لا أدري؟ وربما ما كنت أدري معنى المعصية! فهل هذه معصية؟

-: وجهك البرئ هذا شفاف يكشف ما بداخلك!

وعجبت من نفسي لحظتها عندما وجد الدمع مكانا بين المعاني المتهالكة في دواخلي...

-: أتخافين الرجال؟

-: أجل كثيرا!

-: أتخافين ذلك العالم الخفي!؟

-: أجل!

-: هل هناك أشياء جميلة في داخل أمل!؟ -: أجل... ولكن

-: هل هناك من يحاول قتلها! أو أن ينال منها -: الدنيا بأكملها تريد قتلها!

-: هذاهو.. إنه الواقع! أنت تحاولين بخيالك رسم الواقع لكن على طريقتك، تجسدينه بصورة فأنت تحاولين الإستسلام لواقعك المر لكن عقلك الباطن يرفض ذلك! مما يحدث لك إرباك في واقعك لأنك على قناعة تامة بأن الإستسلام ليس هو الحل، لأن طبيعتك لم تعتد ذلك! أقصد الإستسلام!

-: وهل كل ما أراه وأشعر به خيال مع أن هناك أشياء أراها تتحقق تماماً!؟

-: إنه الحس أو الحدس أو كما يسميها البعض الحاسة السادسة لكن يجب أن توازني أركان نفسك، بين هذه الحاسة والخيال، فالإحساس موهبة من الله وهناك العديد من المواهب التي ملكنا الله إياها لنستفيد منها لكن يجب أن نوازن فيما بينها..... دعي أمل تعيش كما تحب أن تعيش لا تقتليها باستسلامك ولا تدعي أحد يقتلها يجب أن تحميها وتحمي تلك الأشياء التي تعيش بداخلك تلك الأشياء الجميلة!

لم أصدق أنك استطعتي أن تقولي كل ذلك! على الرغم أني لم أخبرك بشئ عني!

-: كيف؟ من الصعب حمايتها من الصعب أن أواجه من الصعب أن أخسر!؟

-: ليس من الضروري المواجهة والخسارة وانما الإحتيال...!

-: الإحتيال!؟

-: أجل!

-: لكن ذلك ليس من شخصيتي ولا طبعي حتى أن من حولي يتهموني بالضعف لأني أصدق كل شيء يقال لي!

-: وأين الحنكة! حنكة أمل التي يجب أن تشهرها في وجه من يحاول قتلها! و ليس أن تقتلها بنفسها جراء الإستسلام! كما أنك تصدقين كل شيء لأنك بلورة صادقة شفافة تظنين أن كل من حولك صادق!

-: هل هذا ذنب من يصدق؟ انا لم أقتل نفسي هناك من يقتلني؟؟

-: تقتلين نفسك باستسلامك لماذا لا تحاول تستطيعين التفرد بذاتك ومجابهة الحياة بهمة وعزم! ربما نتألم للحظة لكننا نعود أقوى من حديد بألمنا لا تفقدي الأمل يا أمل!؟

-: لكني كلما زدت بمجابهة من حولي زدت ألما؟

-: يجب أن نتألم لنشعر بطعم السعادة! سعادة تحقيق الحلم! يجب أن نجرب الألم حتى نعرف فضل الله في السعادة والراحة يجب أن يكون لك الملك الخاص بك!!! فالحياة بحاجة للواقعية!

-: وكيف يمكنني التفريق بين الحدس والخيال والوهم؟!

-: بالقلب النابض بحب الله!

-: أشعر بالخوف عندما أرى شيئاً وأحس بأنه سيحدث وخصوصاً إن كان مكروه!

-: هل تملكين القدرة على تغيير القدر!؟

-: بالطبع لا. حاش لله؟!

-: وهذه عظمة الله فقد تشعرين بالمكروه لكنك أضعف من أن تفكري حتى بمجرد تفكير في تغيير قدرة الله وهذه سمات عالمك الجميل!

-: عالمي!

-: أجل لكل منا عالمه الخاص به والخيال جزء من عالمك!فلا تسمحي لأحد بإقتحامه!

-: الخيال!

-: حاولي أن توجهي هذا الخيال لشيء نافع وجميل فخيالك خصب ورائع لكن يجب أن تختاري الزمن المناسب والمكان المناسب! وأن تثقي بنفسك وقدرتك!

-: لكن ذلك صعب!

-: ليس هناك ما هوصعب مع الإستعانة بالله

-: دائما ادعو الله أن يرزقني الراحة الأبدية!

-: أتقصدين الموت!

-: أجل

-: كلا! إن الراحة الأبدية هي القرب من الله والقرب منه يعني اللذة ألا تستحق هذه اللذه الصبر والتحمل حتى نصل إليها؟

-: بلى!

-: أنت أجبت فلا تتمني الموت. ثم مادام قلبي نابضاً بحب الله لماذا أتمنى موته! بل أجعله ينبض حباً في الله ولا يتوقف!

-: أراك كزهرة جميلة!

ضحكت وقلت:- هذا خيالك إنك ترسمين للأشخاص صوراً كما تحبين أن تريهم بقلبك

تسمعين إحساسك! فيثمر خيالك صوراً رائعة!

لكني عندها رأيتك مثل كتاب ثمين، يشغل قارئه عن جماله وروعة نفسه، بمعانيه هو.. تلك المعاني التي لا يسعها جمال ولا وصف... يا لوحة هاربة من يد فنان مليئة بالإحساس، يا روحاً عبقةً بمعاني الحياة لا تشيخ أبداً.. أين أنت مني الأن..؟!

ثم سلمت عليك وانصرفت أفكر بكلماتك! رغم أني كنت أتمنى أن لا أتركك أبداً لا أعرف إن كنت تذكرين ذلك أم لا لكني لم ولن أنسى كلمة واحدة مما قلتها لي فقد كان لكلماتك الأثر الأقوى لأن أحيا من جديد بحب الله شعرت بالراحة والسعادة لأنك فهمت خيالي أي إنسان سواك كان لابد وأن يتهمني بالجنون! كما حربي وعائلتي! لكن الحمد لله الذي ابتعثك لي!

بدأت بالتفكير بحالي وخيالي هذا بشكل جدي لكني لم أفلح! فما زلت أرى تلك الأحلام المزعجة والكوابيس في استيقاظي..

صدقيني انا أحاول لكن عبثاً ما أعرفه اني أجد نفسي في عالم أخر ليس ملكي؟ كما هي أحلامي وأيام عمري!

صرت أختلس الفرص دوماً لألقاك ولأحدثك عن خيالي وفي لحظة لقيتك فيها لأحدثك تفاجأت بك!

طلبت مني أن أكتب!

قلت:- ماذا أكتب؟؟؟

-: كل ما ترينه في خيالك!

-: لكنه خيال! ضرب من الوهم!!!

-: أريدك أن تحولي الخيال إلى كلمات

-: أحقا!!!

-: أجل!

-: لكن أوراقي ممزقة!

-: كلا..لن يمزقها أحد سواك؟!

-: صدقيني ممزقة..

-: حسننا.. سأهديك انا كتاباً لتكتبي فيه خيالك..

وهذا ما حدث فعلاً بدأت بالكتابة.... كتابة خيالي! ربما كنت في الفترة الأخيرة قد نسيت الكتابة لأني لم أعد أجد من يسمع شعري ونثري!

لكني الأن سأعود لأكتب من جديد! أكتب كل ما أراه!

وكانت البداية.... بداية تحول الخيال إلى كلمات... حروف في بحر العاطفة علها تجد سبيلها وتفتح الأبواب بدأت أكتب، ولكن أين الكتابة الأن، كنت أبعث لك برسائل موتي مكتوبة على أطلال ورق، وبقايا إحساس..

كنت أكتب لك أسئلة بلا أجوبة، كلمات تائهة لا تعرف المرساة، ما كنت أدري أني أكتب نفسي بكلماتي تلك، قد أحركها حين، وقد تسكن حيناً أخر، لكنها صدقيني حتى وإن رفعت أو نصبت،

تبقى مكسورة لإنكساري، وقد أكون عند البعض لا محل لي من الإعراب، لكن منك صدقيني تعلمت أن أرفع وأنصب، بل ويكون لي محلا حتى وأن كان خالياً من علامة الإعراب، فالخلو لا يعني عدم الوجود، وكان ذلك......... بكلماتي

لا تزال عالقة في مخيلتي تلك الصورة لا تفارقني أبداً... طير ضعيف... وضع في قفص! رغم أن الطيور وجدت من أجل الحرية لكنها في يد الإنسان مجرد طير... وجدت لتوارى خلف القضبان البالية!

بدأت المعالم تنحذر وتبرز، حملوا القفص... حملوه ليقذف في عرض البحر ليصارع الأمواج... كان همي الوحيد أن لا أضعف رغم كل شيء، ورغم تلاطم الأمواج واجتماعها قيل أن البحر غدار... لكني أقول:- كن مع الله ولا تبالي..

وصل قفصي لمنطقة غريبة فيها جزر عدة نظرت حولي فرأيت وجوه.... لم أكن أرى وجوههم بقدر ما كنت أرى قلوبهم!

قذفت بي الأمواج على إحدى الجزر كنت أنت هنالك تلبسين ثياباً بيضاء كالثلج وعندما رأيت قفصي أقبلت نحوي حملتِ القفص وفتحته و أخرجتني لكن ليس طيراً بل طفلة!

أجل طفلة رضيعة تغرس ابتسامة على شفتيها ترتشف الحب من عينيك تعتصر ألما من أجل قلب لن يكبر حتى يكبر الله فيه! هناك من

حاول نزعي من بين أحضانك صرت أبكي أبحث عنك ثم ألقيت على الأرض!

واستيقظت!

هذا ما كتبته لك، هذا ما أراه في خيالي ولما قرأت سطوري ابتسمت وقلت:- أمل اذكري الله... أوصيك بذكر الله حتى لا يؤذيك خيالك! فذكر الله أقوى من أي شيء

قلت:- هل ستتحسن حالي!

-: أجل إن شاء الله

-: هل انا مجنونة؟؟؟

-: كلا لاتقولي هذا! أنت تملكين موهبة عالية ستتفجر قريباً في كتاباتك!

-: حقاً!!!

-: أجل!!!

-: هل انا فتاة سيئة؟؟؟

-: كلا!

-: هل الله غاضب مني؟؟؟

-: لماذا تقولين ذلك!

لم أعرف ماذا أقول لك حينها فقد تبادر في ذهني كلام حربي بأني فتاة غير مؤدبة وأني كافرة!

فهربت من الإجابة بسلامي عليك والمغادرة فأنا لم أستطع أن أخبرك يوماً عن الذي كان سبباً في ضياعي... لكني كنت أشعر بأنك تشعرين بي

ولا أنكر أنه والحمد لله قد بدأت حالتي تتحسن بذكر الرحمن وزدت بذكره أكثر وأكثر فوجدت فيه شفاء لقلبي وبدأت أكتب وأكتب وبدأت أحلامي المزعجة تغادرني شيئا فشيء وأذكر جيداً ماذا كتبت لك تاليا فكانت هذه السطور:

(عبثا كنت أحاول ربط الكلمات عبثا أحاول جمعها صدقيني عندما يتعلق الأمر بخيالي فهو مختلف!!!

ليته كان لي أن أكبل الكلمات.. ليته كان لي أن أت بها طوعاً وكرهاً لما بين يديك.. ليته كان لي أن أنثرها على صفحة الورق بكل سهولة! مثلما كنت أفعل ذلك من قبل: فتاة لا أعرفها... أجل لا أعرفها!؟ أراها أمامي تنظر برهة إلى داخلها.... ربما كانت فتاة، لكن ما بداخلها أرق من طفلة!

لم تنم ليلة إلا ودموعها على خدها إن ابتسمت قالوا لها: أنت متجردة من الإحساس! وإن بكت قالوا:- تعشقين الألم! لكنها كانت تقول لذاتها:- الألم كلمة لا أعرفها ، أتعرفين لماذا؟ لأنها أصبحت جزءاً مني! أعتدت عليها مثلما اعتدت على شرب القهوة لذلك لست أعرف الألم!

يسألون:- ما الذي يدفع فتاة في ربيع العمر أن تتألم وتبك!

فتنظر لنفسها أعمق وأعمق! تتأمل صورها وهي مرتمية على الأرض، تحمل دموعها أنها تحاول أن تقف على قدميها وهرب...............

أجل هرب! تكاد أن هرب من وحش مجهول! ومن سياط لا ترحم جسدها الغض! لكنها تعود لتسقط من جديد أنها تنادي وتصرخ:- من هي ملاذي؟؟؟؟

لكنها لا تجد أحد بقربها بل تجد نفسها في وجنة الظلم وحدها تأخذها أفكارها لتتسائل:- ما الذي جاء بي إلى هنا؟؟؟ ولماذا أنا على الأرض وحدي!

تذكرت حينها عندما أجبرت على السير في هذا الطريق وكأنها دمية بل هي دمية تتحرك بخيوط لا تملك من أمرها شيء إلا أنها تحب

الحرية... فعندما تنام اليد التي تلعب بها تتحرك هي.... لكن في الظلام!؟

تسير في الطريق وتسقط لكنها تقف من جديد إلى أن سقطت سقطة موجعة لم تستطع أن تقف كانت تنادي:- ساعدوني!!!!!!

لكن لم يجبها أحد!!!

فأخذت تزحف على الأرض لأنها تحب الحياة وتعشقها... أخذت تزحف رغم الأشواك والقيود في معصميها لتصل إلى بر الأمان! علها تصل!

كم هي بحاجة إلى كلمة تعينها.... كلمة حب!

أيقظتها أنت! لو نظرت لوجهها لرأيت عالماً أخر.... عالماً تغيب فيه الألام، عالم لا يعرف الخداع والحقد، عالما لم أراه من قبل عالما لا ترسمه كلمة، ولا تعرفه ورقة، لانه أشد صفاء ونقاء من أن يوصف!

أجل أيقظتها أنت... بكلماتك الصادقة، رفعتها إلى الأعلى، جعلت منها شيء ذا معنى! كلمات من نور! وقلب نابض للحياة!

أخذت أقدامها الراعشة تقف من جديد وتمشي لتصنع لذاتها قيمة.... نجحت ومشت في دربها تخلصت من قيودها، لكنها لم تتخلص من الماضي و لا نظرة الحزن التي تفر دوماً من عينيها فتهرب أقدامها

لغرفة صغيرة.... لا تكتفي بإغلاق الباب بالمفتاح! بل بالمزلاج أيضاً... ولو استطاعت أن تبني سوراً يحميها.... ويشعرها بالأمان لفعلت!!!

فتضع تلك الحبوب في فمها... وترمي بجسدها البالي على الفراش... وراحت تنام... لكن دموعها تنزل كحبات مطر من غيمة رمادية طافت السماء بألوانها فأتعبها الترحال، فتنظر للسماء وتناجي الله

وتتسائل! لو أستطيع أن ألقي بجسدي هذا بين أحضانك! ليته كان لي!

لو أستطع أن أسند رأسي إلى صدرك، وأشعر بأصابعك الدافئة تلمس شعري وتمسح عني الخوف! صدرك هذا وجدت فيه الحنان الذي لم أعرفه من قبل!

لكن تأتي ساعتها نفسها تباغتها قائلة:- رويدك! هذا الصدر ليس لك! هذه الأحضان ليست ملكك!

أنت تحلمين!

فتقول لنفسها يكفيني أن أحلم!

يكفيني أن أعيش على هذا الأمل! فبالله عليك دعيني أحلم أني بين يدي من يذكرني بحب الله!)

هل تتذكرين تلك السطور؟! عندما كتبتها لم أخبرك حينها أني استيقظت في النهاية لأجد وجه الفتاة ذاك وجهي!

وأن خيالي ذاك هو السور الذي أحطت به نفسي، انا القلعة المتهالكة على المحك، لم أجد إلا سوراً من الخيال أحيطه بنفسي، عباءة أختفي بداخلها بعيدا عن كل شئ، حتى نفسي..

وهل تذكرين يوماً قابلتك فيه، وكنت أحمل بين يدي ورقة تحمل قصيدة شعر لك وللقدس!

اخترت من عينيك عنوانها ومن قلبك جمالها، فأنت الجمال يبتسم فيك ابتسامات مشرعة وحولك الأحزان العابسة، فكانت (قلعة.. بلون السماء)!

قلت بعجب:- وما هو الرابط بيني وبين القدس! ثم لماذا قلعة بلون السماء أو ليست السماء زرقاء!؟

قلت:- هناك فرق بين قلعة زرقاء وقلعة بلون السماء! وأنت والقدس متشابهات!

-: كيف؟؟؟

-: القدس صامدة منيعة... وكذلك أنت بحجابك ونقابك منيعة! وكذلك السماء أيضاً لن يخرقها أحد!

عندما نرى جهاد أبطال القدس نتفائل بالمستقبل ولما أرى صفاء ابتسامتك أتفاءل بالمستقبل وكذلك السماء بلونها الأزرق يدعو للتفاؤل

وعندما نرى معاهدات السلام تشعرنا بأنا أمام مستقبل غامض وأنت عندما أبتعد عنك أرى مستقبلي غامض وكذلك السماء بلونها الأسود في عتمة الليل!

وعندما نرى قلوب الشهداء ترصف طريق الجنة بالدم والحمرة نشعر بالفخر والإعتزاز وكذلك أنت باحمرار وجهك وعزتك بدين الله وغيرتك عليه وكذلك السماء لحظة الشفق! لذلك كانت قصيدتي قلعة بلون السماء... لتجمع بين تلك الرموز والألوان وبين قلبك والقدس ولتجمع كل المعاني بين ثناياك....

-: أنا أقل من ذلك...

-: بل أنت كذلك

-: ألن تسمعيني قصيدتك؟؟؟

-: بلى.. فكانت كلماتي تخبرك عني، قبل أن أخبرك انا عن نفسي، فقلت على لسان القدس:

بكى الصمت على مدني

وسرت بجسدي رعشة

هدمت عمري

ورمتني في جوف همي

تركتني...

وحدي هنا

نادتني:-

أشجارك.... أحلامك!

بيوتك.... أحجارك!

نجومك..... أقمارك!

أعرف... لست ملكي!

لست ملكي!

أحلامي لم تعد ملكي

وزماني قد سرق مني

ناداكم صوتي البعيد ها هنا انقذوني!

ويداي بالأسر هنا... أعذروني!

حبيبي..

هذه أنا... قلعة... بلون السماء

هيا.... مد الجسور

واقتحم أسواري من بين الحقول

بكى الصمت.....على مدني

وسرت بجسدي رعشة

هدمت عمري

حبيبي...

أمشي وحيدة... بين غابات كثيفة

وعيونهم عني غريبة

قلوبهم ليست قريبة

أمشي وحيدة.... ولست وحيدة!

حبيبي....

كلما حل المساء.... كان اللقاء

فأنا هنا.. قلعة... بلون السماء

تحب فارسا عرف الوفاء!

حبيبي...

أنثر ورودك في الفضاء

وتعال نرحل للسماء

لنعيد للحن الوفاء

قد كان يوما بيننا

حبيبي....

بين الممات صحوتي

وفي القبور رأيتي

وفي القيود معصمي

كيف الخلاص؟

كيف الخلاص؟

تعال كي نرسم معا

فوق الغيوم شمعة

تبكي دموعنا دماً

لتكن دموع العاشقين

رسالة الحب الدفين

وتغسل القلب الحزين

قلبي أنا!؟

قلبي أنا!؟

حبيبي....

هذه أنا... أسطورة لحب مضى

سجينة لقلب طوى

كل الزمان!

كل الزمان!

أذكر جيداً حينها كيف كانت ملامحك تنحدر من وجهك وكيف كان وقع كلماتي، هل تعرفين اشتقت لخجلك الذي يشتعل حياء منك، اشتقت لعينيك اللتان تغزلان الحب كعهدي هما دوماً، اشتقت لكل شئ، لأنك كل شئ...

لكنك قلت:- أمل! أنا لست مقيدة

فابتسمت وقلت لك:- أنت قلت لي أننا مقيدون بهزيمة الأمة! وبقلة حيلة الشعوب

وانا على يقين تام أنك فهمت قصيدتي وما قلت فيها

وأنك فهمت من هو حبيب القدس!

فأجبت: أعرف أنك كنت تقصدين الشهيد! الذي يفجر نفسه على عتبات القدس تتطاير أشلاء جسده في الهواء وكأنها ورود نثرت في الفضاء لتنثر عبقها وشذاها...

كنت وما زلت وستبقين معلمة رائعة... وقبل ذلك أم! لم تبخلي على قلبي المتهالك برحمتك وعطفك، لم تبخلي علي بلمستك ودفئك، لم تبخلي علي بذاك الأمل الذي غرس بداخلي ونما يوما بعد يوم... أين أنت الأن وانا مكومة فوق بعضي، كبقايا أشلاء.. أين أنت؟ لابد أنك تسمعين!

كنت تعطينني كل شئ،بل ربما أكثر... كم كنت أستمتع بكلماتك عندما أسمعها وأرددها دوما حتى صرت أحفظها عن ظهر قلب، أطبقها وأحيا بها، وأحفرها بدواخل نفسي:-

" لو شغلنا بجلال الله وجماله ما حملنا في الدنيا هما "

فكم أحببت هذه الكلمات... فحقا كلما سافرت في بحر حب الله زال همي...

وأذكر أيضاً كيف علمتنا معنى الحب في الله، فنحن نتحاب في الله حتى يظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله....

وكيف علمتني أن نبني أساس علاقاتنا مع الأخرين على الصدق حتى نرق في حب الله... وأنه بمقدار خفق القلب بحب الله يخفق بحبنا لبعضنا بعضاً....

وكيف علمتني أيضاً أنه من عرف الله لا يستطيع إلا أن يخشع بإرادته لفعل الله! لأنه لا يوجد تفسير لأي فعل إلا بأفعال الله!؟

علمتني الكثير والكثير وماذا عساي أن أكتب! فعلمك يحتاج لبحر من حبر لأكتب!

كنت أسعد بشر... لأني كنت ألقاك!

كنت في لحظات أتمنى أن ألقي بجسدي المتهالك بين أحضانك، بل وكنت أفعل ذلك!

كنت ومازلت أمي.. أجل أمي، انا لم أعرف لي أم سواك، وحتى أيضا لم أعد أعرف لي أباً... فأبي الإسلام ولا أباً لي سواه..

كثيرا ما كنت أتساءل عن معنى كلمة أم.. ماذا تعني، لكني حقاً لم أعرفها إلا عندما عرفتك، كنت بابتسامتك تبنين مجدي، ذاك المجد الذي هدمه الأخرون، تبنين شخصي قطعة قطعة، في الوقت الذي هدمت فيه قطعة قطعة، فأي كلمات شكر تفيك يا أماً بأمة... أظنك تخجلين من كلماتي الأن، لكن صدقيني كلماتي تخجل منك.. لأنها منك أنت.. فليست إلا أنت، وليست إلا انا، وكلانا شطرنا المجزوء في روح الأخر منا...

كثيرات من اتهمنني بحبك...

فقلن أني أعاني من نقص عاطفي أعوضه فيك! لكني لم أكن ألقي بالاً لهذه الإتهامات، فمتى كان حبك جريمة!

وتمضي الأيام كأنها لحظات... وينتهي الفصل الدراسي الثاني وكنت أكثر البنات إيلاماً... بالطبع لفراقك!

عندها أخبرتني أنه بإمكاني أن أتيكي بأي وقت! وأنك تسعدين بلقائي لأني " ابنتك " نسمة

يا إلهي ابنتك نسمة سألتك مستغربة فأجبتني

أجل لأنك أرق من النسمة!

-: بل أنت أمي!

كم كان وقع هذه الكلمات جميل في نفسي " ابنتك نسمة " بقيت أرددها بين أحشائي وخلجات قلبي..." ابنتك نسمة"

أحقا تقصدينها؟

سألتك:- أحقا انا ابنتك!؟

-: أجل

-:إذا انا لا أريد أن أتركك يا أمي!

-: لن تتركيني... ستغادرين إلى عالمك ثم ستعودين لي من جديد!

-: أنا أكره الفراق!

-: أنا أحب الفراق!؟

-: أحقا تحبين الفراق؟؟

-: أجل لأن بعد الفراق لقاء! ويقول الله عز وجل في كتابه " الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون "

فشعرت بالسعادة فقد كانت هذه فلسفتك الفريدة في أصول الفراق فوجدت نفسي حينها ألقي بجسدي بين يديك فلن أحزن لفراق

أحد فموعدنا الجنة! وصرت أحب الفراق مثلك غاليتي..لكن لأن بعد الفراق لقاء، حتى وإن كان اللقاء لقاء روحي....

هل تعرفين السعادة، ما عرفتها إلا عندما عرفتك، لأول مرة أشعر فيها أني ابنة، وأن لي أم مثل كل البنات حولي، لأول مرة أشعر أني إنسان كامل بعد النقص الذي كنت أعيشه في الماضي، أتصدقين، لأول مرة أشعر فيها أني أحيييبيا...

وكم شعرت بالسعادة أيضا لأن تاريخ اليوم الذي أبصرت أنت فيه النور كان يوم النكسة!

وكأن الله يعوضنا بك بدلا من النصر! فأنت نصر وفوز لمن عرفك حقاً!؟

وجاءت الإمتحانات ولم أستطع أن أعدل نتيجتي... رغم أني كنت أبذل جهداً مضاعفاً فكان الرسوب حليفي أيضاً

لكن زوج أمي لم يسامحني هذه المرة.... ولم يجد لي عذراً وفي لحظة دخل غرفتي... بعد أن علم نتيجتي وكان يحمل بين يديه سلاسل!

هجم عليا كصقر يخطف فريسته وقيدني! فلم تشفع لي دموعي!

ربط يديا إلى قدميا وعصب عيوني وألقاني على الأرض وصرخ:- لن تتناولي الطعام... ستبقين هكذا.... حتى تتعلمي كيف

الدراسة فنحن لا نلعب قد رفع عملك القضية وأن لم تتزوجي حربي فسيضيع كل شيء ستبقين هكذا حتى نعقد قرانك... وصرخ

حاولت نزع قيدي لكن دون جدوى... وللأسف عدت أتخيل.... رأيتك أمامي صرت أصرخ:- أمي! ساعديني!

فسمعتك تقولين:- أمل.... ليكن أملك الله!

ثم سمعت صوت الأذان.... زحفت على الأرض حتى وصلت لملائة السرير... وضعتها على جسدي لأستر نفسي وتذكرت ما تعلمته منك!

بأن ألتجئ إلى الله

لم أستطع أن أقف وأعتدل للصلاة لكني أستطعت أن أضع نفسي في وضع السجود... وأقمت الصلاة.. بكيت وفررت إلى الله...

ثم سمعت أصوات متداخلة، عله صوت عمي، صدقيني لم أعد أعرف هل هذه حقيقة أم خيال، ثم تناسيت ذلك وعدت للصلاة..

أنهيت صلاتي... وزحفت قرب النافذة حاولت أن أنادي على عمي لكن بهدوء حتى لا يسمعني أحد... والحمد لله وجدت النافذة مفتوحة وكانت خفقاً موجودة سمعتني واقتربت...

صدمت بمشهدي! وتوعدت أمي وزوجها، وأخبرتني أنها ستعود لأخذي معها..

و لم تمضي أكثر من ساعتين ونصف إلا وكانت عمتي، في المترل ومعها عمي..

سمعت صوتها عندما دخلت المترل حاولوا منعها من الدخول إلي وارتفعت أصواتهم ثم دخلت غرفتي وعندما شاهدتني

صرخت:- بنيتي... ماذا فعلوا بك؟ لعنة الله على القوم الكافرين!

وفكت قيدي وقالت: سأخذك معي رغماً عنهم! هيا سيأتي عمك بعد قليل لاصطحابنا وضمتني لها..

وهكذا عدت من جديد لأعيش في بيت عمتي..

الشيء الوحيد الذي كان ينقصني هو لقاءك كنت أحاول الإتصال بك لكن لم يشاء الله ذلك!

وفي يوم من الأيام حلمت بك متعبة! واستيقظت من نومي أردد اسمك

عندها قررت أن أسافر للعاصمة لألقاك كان الطقس بارداً... لكني خرجت، لم أخبر أحدا بما أنوي، ورغم برودة الطقس إلا أني كنت مصرة.

خرجت من المترل بدأت السماء تمطر ألقيت بجسدي في أول حافلة متجهة للعاصمة وشاء الله أن تتعطل في الطريق، هل تعرفين ليست الحافلة وحدها التي تتعطل في الطريق إليك، بل حياتي كلها معطلة، معطلة بشئ لا أعرفه، معطلة رغما عني...

وصلت ولكن عند نهاية الدوام تذكرت حينها الشارع الذي تمرين فيه بسيارتك تذكرت ذلك الشارع فأسرعت إليه عليّ ألقاك هناك..

كان الجو غائماً... اخترت أن أقف تحت ظل شجرة هناك وبدأت أحدث نفسي:- ستأتي! هل سأراها!؟

وبعد مدة من الزمن جئت... مررت بسيارتك من أمامي... وكأنه حلم.. توقفت للحظات. أخذت تحدثين رفيقتك.

بدأت السماء تمطر وتعصف في جسدي! كم أشعر بضعفي الأن! فكل ما يفصلني عنك هو خطوات، لكني لا أستطيع أن أقترب منك لأنك سترين آثار القيود في معصمي ولن أستطع أن أخبرك بأمري!

فكيف سيكون حالي الأن!

كنت أتمنى رؤيتك لكني لم أرى ملامح وجهك لأنه استتار بالنقاب! فكم شعرت بالغيرة منه لأنه يحجبك عني الأن!

كنت... كنت أنوي الرحيل إليك..

حقا..

أنوي الرحيل إلى السماء مزارا..

علي أفوز بالنجمة العلياء جارا..

قد كنت أرحل في الفضاء مهاجرا

باحثا..فوجدت في عينيك دارا

فحملت رحلي وقلت: يا ريح إنا

لانطيق على بعد الحبيب اصطبار

فالتقينا..وافترقنا..ومشينا

ووجدتك في قلبي جلنار

ووجدت فيا نبرة منك

كأنها غرست في صوتي تذكار

أدانية الأفنان مورقة

في عالم هش بلا أثمار

أغائبة عني وحاضرة في خيالي

طيف بلا إنكار

أزائرة روحي دارك

وسائلة عنك عيون ونظار

أباحثة عنك بكل محيا

كالضرير أتحسس الأخبار

لا تعذليني فأنت نور

وانا جرم منك استنار

لاتعذليني

فكل الكلام

لايكفيك شدواً وأشعار

يا روح إن تنوي الرحيل إليها

فلن تبلغي بعد من الأعذار

وإن استرقت نظرة فلن تكتفي

فالبدر بخمار استتار

بلى وربك. فالشوق يكفي

حتى وإن قلبها بعذرك حار؟!

وإن لامتك فاللوم لوم

على قدر الوداد إكثار

هل تذكرين يوماً مضى

سعدنا بصحبة البدر حتى الدار

وصحبتني حتى هوى

من حسنك الطائر ما طار

وحسبت نفسي أمشي على

صفحة الماء بصحبتك كأطيار

أتعذليني إن أهديتك كلمة

أو حملت لك طوقا من الأزهار

شيماء أنت في ربيع حياتي

طرقت الباب بحب الله والديار

علمتني شدوا الحياة

وأن الدين للدنيا نهار

فكيف لا أهديك عمري

وانا ضعيف الشوق إن ثار

لكني لا أملك أمري

فلست إلا سائراً ما سار

فيا مالك الأمر اقضي

بما تقضي به الأوطار

وهبها جنة الخلد

ومن الدعاء أكثرها إكثار..

صدقيني لم أكن أشعر بأني أصبحت غيمة مليئة بالماء فقد ابتلت ملابسي ثم نزلت رفيقتك من السيارة... وأسندت رأسك على الكرسي وهذه الحركة لا تفعلينها إلا وأنت متعبة!

لذلك عرفت أنه قد صدق إحساسي بك!

فجأة... وجهت نظراتك نحوي خفت واعتصرت جذع الشجرة حتى لا ترين جسدي تحركت للأمام شبرا ثم أعدت النظر جهتي فتحركت بجسدي حركة موازية لحركتك حتى لا تتعامد أنظاري معك...

ثم انطلقت وغادرت المكان... شعرت بأن روحي تنزع مني وتلحق بك... فلحقتها قدماي وصرخت من دون وعي:- أمي أنا هنا!

لكن نفسي كبلتني وحاصرتني بسؤالها الأحمق:- إلى أين؟؟ وهل جننت؟؟

فطأطأ رأسي وانحنى وسرت للمجمع! فكيف لي أن أعتز بانهزامي! أمامك!؟ كيف لي أن أريك وجهي وأنا المهزومة من رأسي حتى قدمي، قد جردوني يا أمي من كل شئ.. من حقي.. من بيتي.. ومن أرضي..وحتى من نفسي، وحرموني من إنسانيتي.. كيف لي أن أريك وجهي، كيف؟!

وصلت الحافلة وعندما هممت بركوبها خيل إلي أن السائق يلبس نظارة سوداء! بل حقا إنه يلبس نظارة سوداء! إلهي أي طريق ستسير فيه حافلة يلبس سائقها نظارة سوداء، بل أي طريق سيأخذني إليها...

وعلق مساعده على حالي:- توقف. هناك فتاة تحمل كمية زائدة من الماء تريد أن تركب معنا!؟ أتراه يعرف أن الكمية الزائدة التي أحملها ليست فقط ماء المطر، وإنما الدموع والهموم والأحزان وأشياء أخرى لا أعرفها.. لكنها حتما تعرفني جيداً..

فأسرعت لأرمي بجسمي على الكرسي الممزق ياه كم يشبه حالي الأمة الأن! ممزقة!

فأنا غارقة بدموعي! في أحشائي تقطعت ضلوعي والسائق أعمى لا يرى!؟

فإلى أين سنصل معاً! وهل سنصل!؟

عدت لمترل عمتي وكانت بانتظاري فتحت لي الباب ثم نظرت إلي... وقدكنت أقف وحبات المطر تنحدر في ملابسي التي تحولت لقطعة اسفنجية رطبة!

ثم أغمى علي.. واستيقظت لأجد نفسي في فراش دافئ وهناك طعام دافئ بقربي والأهم من ذلك كله قلب كله حب! بل قلب دافئ وهو قلب عمتي!

ورأيت (خياة) بقربي تحدثني

قالت:- ألم أقل لك أن الطقس غير مناسب!

ألتقيتيها؟؟؟؟

قلت: من بعيد رأيتها!

قالت:- هل هي بخير؟؟؟

قلت:- إنها متعبة

وهكذا أصبح أمر ذهابي للعاصمة لأطمئن على صحتك هاجس لي! فكم جميل أن نلتقي معاً فإن بالتقائنا النصر الذي أطمح به!

أعرف أنك لو كنت تعلمين ذلك لعاقبتني!

ولسألتني: أيرضى الله أن تنتظريني هكذا في الشارع!

عندها سأجيبك:- أنا فتاة مشردة لا وطن لي! فأين ألقاك! ولا بد أن نلتقي يوما فدعيني أحلم!

فأنت من أحيا قلبي بحب الله بعد موته، أنت الأمل الذي غرس في جوف أمل.. أنت الحياة والبهجة

لكن السعادة التي كنت أشعر بها لا تدوم، فقد كنت أحيا في حب الله وأتلمس الجمال في تلاوة أياته، وأستمتع في الإطالة في الصلاة لأناجي ربي، وبذلك عرفت حقاً السعادة، لكن جاء من يفسد علي عيشتي تلك، فتفاجأت بزوج أمي في مترل عمتي، يريد أن يصطحبني معه للمترل بعد أن استطاع أن ياخذ حكما من المحكمة بضمي لأن عمتي ليست أهلا لتحمل مسؤليتي لأنها امرأة مريضة..

وهكذا عدت لمترلنا، هل تعلمين، أشعر أني كدمية يتقاذفها الأخرون، مشردة بلا مأوى أعيش فيه.

كنت دائما أحاول الخروج من المترل لألتقيك دون علم أحد، كنت دوما أستقي من عينيك القوة والأمل بالله، كنت عندما أحدثك أشعر بالراحة التي لا أعرفها إلا بين يديك، كنت طفلتك وكنت تسعدين بذلك، لكن ذلك لم يدم طويلاً..

فقد عرف زوج أمي بما بيننا، واتهمني أني على علاقة بك، أنت الإنسانة الملتزمة دينيا وادعى أنك تنضمين لجماعة إرهابية تجند الفتيات من أجل أغراض خاصة، وأن نقابك الذي تلبسينه هو الدليل على أنك إرهابية!!!

منذ متى كان الإلتزام إرهاباً؟ منذ متى كان الدين جريمة نعاقب عليها؟! منذ متى نتهم الناس جزافاً؟

من أنت أيها الغاصب لتتهم الناس هكذا؟! من أنت أيها الغاصب لتقتلني بهذا الإتهام؟؟

كم أخجل منك الأن؟! لأني سببت لك الكثير من المتاعب، كم أخجل منك لأني أسأت لك من دون قصد مني صدقيني؟ أعرف أن زوج أمي تقدم بشكوى ضدك حتى لا تقتربي مني، أعرف أنه لم يعد بإمكاني مقابلتك، أعرف أنه اتهمك بالإرهاب، وبالتأثير على عقول الفتيات وتحريضهن على عدم طاعة الأهل..أعرف ذلك للأسف!؟ وأعرف أنك ابتعدت عني رغماً عنك وعني، وأعرف تمام العلم أنك أنت أمي وليس لي أم سواك.. أعرف أنك القلب النابض بالحياة، وأعرف تمام العلم أني ابنتك رغم كل شيء، فهذه ضريبة الأمومة يا أمي، أجل أنت أمي...

أمي أنجبتني من رحم الوجع.. أرضعتني العز والكرامة، علمتني الحياة،غرست في قلبي حب الله، والإخلاص لدينه، علمتني ماذا يعني الإسلام، وماذا يعني الدين..

يا أم بأمة، يا روح سامية تعلو على المادة، أعرف أنك تشعرين بي، وأعرف لماذا عندما هربت من مترلنا لألقاك وأعتذر منك طردتني..

أجل... طردتني من بين يديك وقلت عودي حيث أتيت يا فتاة... نظراتك كانت تحثني على الفهم كنت أنظر إليك وانا أتحاشى الفهم.. أقول لك: هلا أخفيتني يا أمي..

كنت تقولين لي: ليته كان باستطاعتي يا ابنتي..

كنت تقولين لي: تصبري بالله، فليكن حبه زادك، كوني موقنة بأنه معك، ولن يخذلك، اصبري و لا تنسي حقك، لا تستسلمي أبدا.. رب الملوك معك فمما الخوف...

تركتني، وذهبت، لكن عمي كان بانتظاري، فقد علم بخروجي دون إذنه إليك، وأخذ يجرني، وألقاني في السيارة، وعندما وصلت المترل، أعصب عيوني وكبل يدي بالسلاسل وألقاني على الأرض... فعدت كما كنت سجية.. لكني كنت بالله أقوى..

أجل. لم استسلم ولم أخضع، كنت أفكر باسترداد حقي المسلوب ذاك و أجل سأستعين بالله ولن يخذلني، حتى وإن قيدوني بألف

قيد.. سأقف. أعدك يا أمي أن أقف.. وأن أعود لك منتصرة.. رغم كل شئ..

وتمضي الأيام وانا أعيشها بسعادتي رغم قيدي، لأني أعيشها مع الله، و بحب الله مضت مدة طويلة من الزمن الذي يحتسب من عمري الطويل وانا ملقاة على الأرض مكبلة، ليلي كنهاري، حتى الطعام كان يوضع في طبق على الأرض ألعقه كما ألعق أحزاني، كنت أتخبط كالضرير في أتون الوحشة، وسط أشخاص أكون بعيدة كل البعد بالقرب منهم، أجل يمكنك أن تشعري بي الآن، انا الغريبة في عالم لايعرفني، لكنه حتماً سيعرفني يوما ما رغماً عنه...

كنت أسمع دوماً صوت طفل يلعب بالكرة في الحديقة قرب نافذتي، كان دائم الإصرار على ركل الكرة لحائط سجني،كان يركلها بكل قوة، كأنه يركل جسدي المتهالك حول روحي أيضا، كلما زاد ضربه للكرة قوة، زدت إصراراً وعزيمة، يركلها ركلاً متتابعاً، فتختلج نفسي، تزداد جدرالها ضغطاً، فتزداد نفسي قهراً، حتى ألقت نفسي من جوفي صرخة أخرجتني من سجني وقيدي، فإذا الطفل يبكي فقد انفجرت الكرة!!؟

وتفاجأت بحربيايدخل علي الغرفة يومها، أخبرني أن أمي مريضة جداً وتتمنى رؤيتي وألها لاتستطيع الكلام، وقال لي أنه سيقوم

بفك قيدي ليلاً، عندما يخرج والده من المترل حتى يتسنى لي زيارتها في غرفتها..

ألم أخبرك بأني أصدق كل شيء يقال لي! وأني لا أفكر بما يفكر به الأخرون من نوايا سيئة! وبالطبع صدقت حربي! لكن قلبي خفق بشدة لحظتها أحقا أمي تريد أن تلقاني؟؟ كم انا ساذجة حقاً.

لكنها أمي على كل حال ويجب أن اطمئن على صحتها

وإليك ما حدث جاء حربي ليلاً وفك قيدي، لم أكن خائفة! لأن الله عز وجل خيراً حافظاً وهو أرحم الراحمين!

قلت:- أين أمي؟؟؟

قال:- خالتي بانتظارك في الداخل

ثم أغلق الباب، سألته:- لماذا أغلقت الباب هكذا؟ أين أمي؟؟؟

فدفعني بقوة للداخل وقال ادخلي؟

صرت أنادي على أمي لكنها لم تجب!

بدأت أبحث عنها لكنها ليست هنا!

قلت:- أين أمي أيها الوحش!

قال:- ستأتي!

وإذا به يحاول نزع حجابي ويقترب مني!

صرخت:- ماذا تفعل؟؟؟

قال:- رفضت الزواج مني لكن.. الأن ستتمنين الزواج مني فسأخذ حاجتي منك وألقيك أرضاً! وستقّبلين قدمي بعد اليوم لأتزوجك لكني لن أفعل وستحملين العار مني!

ركضت لغرفتي صرخت أيها الحقير! ابتعد عني!

حاولت إغلاق الباب ولكنه دفعه بقوة جالت نظراتي في الغرفة رأيت إناء الزهور الذي أهديته لحياة يوماً أمتدت يدي إليه أمسكته وضربت به حربي على أم رأسه..

وقفزت من النافذة إلى الشارع سال دمه! لكنه لحق بي من جديد شدني من حجابي! وقعت أرضاً دفعته ثم أمسكت بحجر كبير وضربته عدة ضربات على رأسه وجسده وركضت..

السيارات.... هربت من السيارات لكن إلهي.. إنه ما يزال حياً.. حاول اللحاق بي!

استطعت أن أنجو من السيارة القادمة لكنها صدمته!

أجل صدمته وسقط أرضاً.... مات!

خفت:- دماؤه على يدي! هل قتلته!؟

هل ستصدقني أمي الأن!؟ وهل كان يجب أن يحدث ذلك لتصدقني! إن صدقتني!

هربت من المكان لم أجد سوى حديقة المدرسة لأهرب إليها ألقيت بجسدي على جذع شجرة الزيتون وفقدت الوعي!

ثم وجدت نفسي على هذا السرير في المستشفى أخاف أن أفتح عيوني وأرى الدماء من جديد أخاف أن أفتح عيوني وأرى كوابيس الخيال! لكن صدقيني:- كوابيس الخيال وإن كانت مزعجة! فهي أقل وطئة من الواقع؟

لا أعرف من الذي جاء بي إلى هنا، و لا أعرف من الذي وجدني في الحديقة، ولا أعرف من الذي أخبرك لتكوني الأن بقربي تلامس روحي روحك، وتسمع قصتي..

انا التي تاهت على عتبات هذا الزمان المظلم، انا التي تحطمت أحلامي من دون ذنب..

لكني لا أريد أن أستيقظ و أفتح عيوني!

لا أريد أن أعيش الواقع كنت أشكو من خيالي! والأن أتمنى أن أعود إليه لأنه أجمل وأفضل مئة مرة من الواقع!

وأنا الأن أميرة نائمة بفعل سحر أدمي مسني ولن أستيقظ إلا بقبلة!!!

لا تذهب أفكارك بعيداً! فليس هناك أمير وفارس؟ وإنما هي قبلة من سيدة القلوب!

أجل أنت ملكة القلوب التي أحيت قلبي بحب الله والتي أنقذتني في الدنيا والأخرة بإذنه!

ها أنا أشعر بأنفاسك تخترق أنفاسي وهذه شفتيك الرقيقتين تسكب قبلة على جبيني

ففي لحظة التقائنا يكمن السر!

قلت:- أمل.... ابنتي نسمة! أعرف أنك تقدرين!

لكن هل عيوني ستتفتح هل ما زلت ابنتك هل ما زلت نسمة؟؟؟

ستقولين أجل بالتأكيد!

سأقول لك: لكنك قلت لي أن نسمة رمزاً للفضيلة أما انا الأن فقد تلوثت بالدماء

ستقولين: ومن قال لك ذلك أراد الله أن يخلصك من الظلم بقدرته فقد مات حربي جراء صدمه بالسيارة و لا دخل لك بذلك!

سأقول لك: لكني كنت سأقتل! تلوثت بالجريمة!

ستقولين: كلا. لا يستطيع أحد أن يلوث الفضيلة!

وأنت الفضيلة؟!

لكني بسأسأل سؤال ساذج كعادتي:

يا ترى هل ستعيش أمل؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

أعرف أنك ستقولين يجب أن تعيش! لكن: هل كل الناس مثلك! فهناك من سيقول:- ستعيش أمل؟

وهناك أناس صرحاء فسيتمنون موتها!

وهناك قسم ثالث:- هم أخطر قسم فهم سيقولون بأفواههم:- يجب أن تعيش أمل! لكن أفعالهم ستقتلها!

أعرف أن خيالي قد شطح بي بعيداً ولكن! هل لي أن أخبرك سرا!

هذه ليست قصتي! بل قصتنا جميعاً! قصة أمة بأكملها!

ابحثي عني بين طيات كلماتي، أعرف أنك ستفهمين قصدي، لكن صدقيني: أخاف أن أفتح عيوني ولا أجدك، وتكونين ضرباً من خيال..تمنيته للحظة عاش بداخلي وعشت بداخله، أعياني قبل أن أعيه.. مات بداخلي قبل أن أموت فيه.

أتمنى أن ينال خيالي رضاك وأن تعجبك حياتي.. حياة أي حياة. لا أدري.. أين أنت.. انا أبحث عنك...



الكاتبة في سطور

-ولدت في عمان عام 1988

-حاصلة على درجة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من جامعة العلوم الإسلامية العالمية

-تعمل معلمة للغة العربية

-لها العديد من الأعمال الأدبية التي لم تنشر بعد

قلعة بلون السماء

تعلمتُ منذ صغري أن أصنع من كلماتي جسوراً تصل إلى عنان السماء، وأن أرسم صورة حية لواقع





دار يافا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - الأشرفية
تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٧٧٨٧٧٠
ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن
E-mail: dar_yafa@yahoo.com